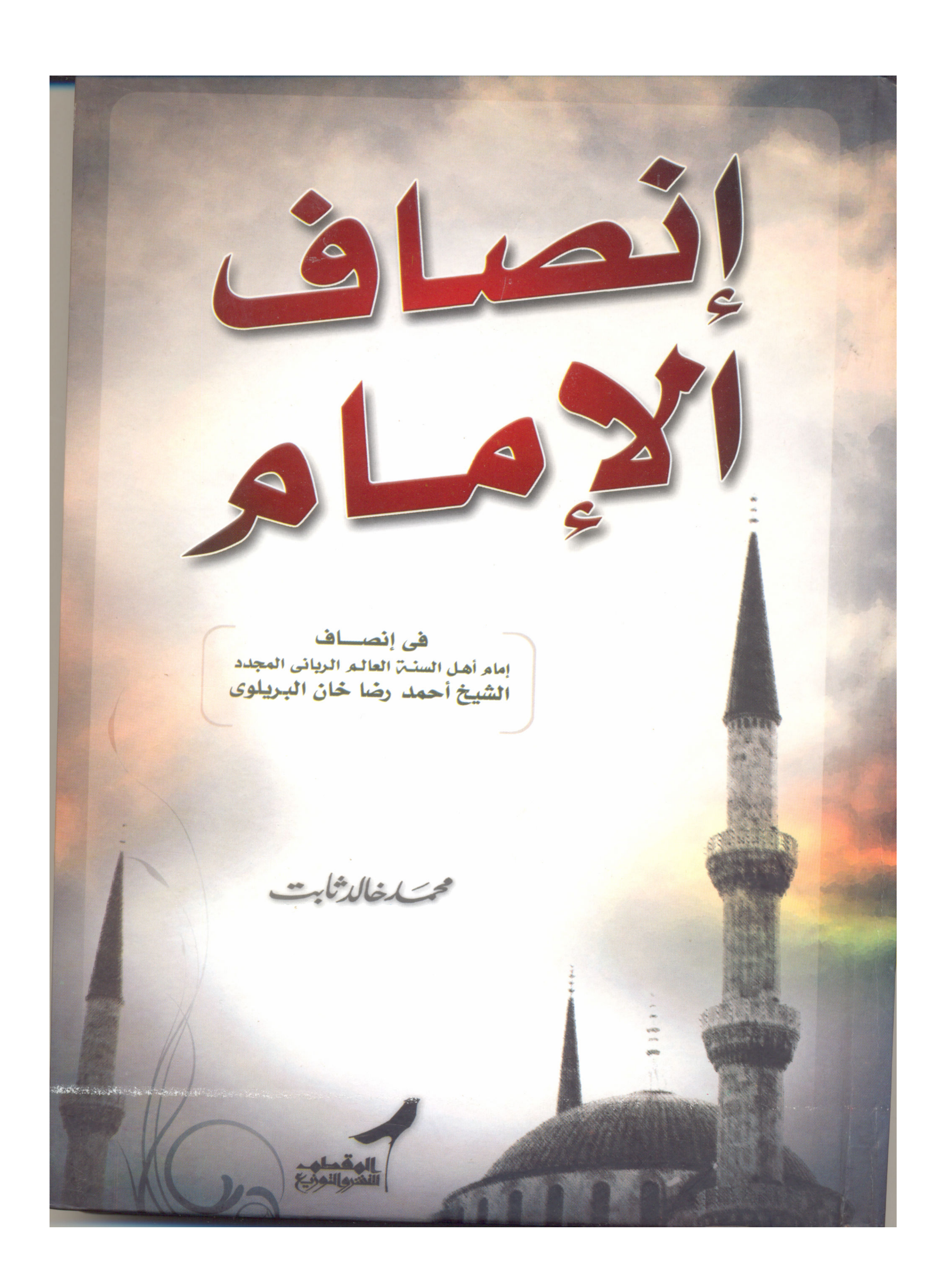

إنصاف
الإمام
فى إنصاف
إمام أهل السنة العالم الربانى المجدد
الشيخ أحمد رضا خان البريلوى
محمد خالد ثابت

إنصاف الإمام

في إنصــــاف
إمام أهل السنة العالم الرباني المجدد
الشيخ أحمد رضا خان البريلوي

محمد خالد ثابت



قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

"إذا ظهرت البدع ولعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فلينشره،فإن كاتم العلم يومئذككاتم ما أنزل الله على محمد"

(أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق وابن عدى فى الكامل والخطيب فى التاريخ)

تقديم

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على خاتم رسل الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

ففى يوم من أيام شهر ربيع الأنور اتصل بى على الهاتف أحد الأصدقاء وسأرمز له ـ هنا ـ باسم الدكتور "حبيب"، لأنه فعلاً حبيب إلى قلبى، وله علىّ أياد ومآثر، وقال لى إنه اطلع على كتاب قمت بنشره، وإنه متألم جدًا لأن أقع فى خطأ جسيم كهذا!

فسألته عن عنوان الكتاب الذى يقصده، فقال: "حدوث الفتن وجهاد أعيان السنن"!

ثم راح يكلمنى عن "البريلوية"، وأنهم فرقة زائغة، وأنهم يكفرون سائر المسلمين، وأنهم كذا وكذا..

وقد دُهشت جدًا لسماع هذا الكلام من صاحبى الذى جمع الله له أفضالا شتى منها العلم الواسع والفقه، والتصوف، والذكر والدعوة والتعليم والتربية، والعمل العام وغير ذلك مما لا أكاد أحصيه. وهو فوق ذلك على خلق نبيل وتواضع لا تكلف فيه.

فكان من معرفتى بسعة صدره وحسن خلقه أن دعوته لزيارتى فى بيتى، فلبى مشكورًا. وحاولت أن أشرح له ما عرفته عن الإمام أحمد رضا خان البريلوى، وكيف وصلت إلى هذه المعرفة، لأن فى ذلك إجابات عن كثير من الأسئلة، وكشف لكثير من الغموض والإبهام.

لكننى لم أتمكن من هذا الشرح الذى أردت فى ذلك الوقت، وقال لى الدكتور "حبيب": أنت على صلة بالدكتور على جمعة (مفتى الديار المصرية الحالى) فلماذا لا تعرض عليه أمثال هذه الكتب قبل أن تقدم على طبعها؟

ثم قال لى إن الدكتور "س"، وهو من تلامذته، وعالم أزهرى له سمت وأدب وعلم جمّ، قد اطلع على الكتاب واستاء جدًا من قيامى بطبعه، وعرض ـ مشكورًا ـ أن يقوم لى بمراجعة أى كتاب تطوعًا، حتى لا أقع فى مثل ما وقعت فيه هذه المرة.

وأعطانى رقم تليفون الدكتور "س" فكلمته، وعرض على خدماته صادقًا ومحتسبًا، وسمعت منه فى ذم "البريلوية" أضعاف ما سمعت من الدكتور "حبيب".

سألت فضيلة الدكتور "س" عن مصادره التى استقى منها معلوماته عن "البريلوية"، فذكر ـ من أهمها ـ كتاب "البريلوية" لإحسان إلهى ظهير واصفا مؤلفه بأنه "وهابى قُح".

ولاشك أن فضيلة الدكتور من أكثر الناس معرفة بوسائل الوهابية فى هجومهم على رموز أهل السنة، ومع ذلك صدّق هذا الوهابى "القح" على حدّ تعبيره، فلماذا لم يصدقهم فيما قالوه فى حق الأشعرى والغزالى وعبد الوهاب الشعرانى، وصدقهم الآن فى حق أحمد رضا خان البريلوى إمام أهل السنة فى قرننا العشرين، وإمام المحبين لحبيب رب العالمين، وإمام المادحين، وإمام المفتين المتقين، وإمام العلماء العاملين وإمام

المجاهدين، وقل ما شئت فى وصف علومه وأخلاقه. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لذلك أقول لك يا فضيلة الدكتور: لو عرفته ما قلت فى حقه ما قلت، ولا فى جماعته التى هى بحق جماعة أهل السنة فى القارة الهندية، والتى لا تزال تقف فى وجه المبتدعة والملاحدة.

أما كتاب "حدوث الفتن" الذى أثار حفيظة الشيخين فهو كتاب على منهج أهل السنة، يتكلم فى نشأة الفرق المبتدعة، وبيان عقائدها، وجهاد الإمامين الأشعرى والماتريدى لها، ثم جهاد علماء أهل السنة فى الهند لهذه الفرق جهاد الأبطال الأبرار. ومن هؤلاء العلماء الإمام المجدد الربانى الشيخ أحمد رضا خان البريلوى.

إنه كتاب، لو أن صاحبه الأستاذ محمد أحمد المصباحى، لم يكتب غيره لكفاه، ولأصابته بشرى النبى صلى الله عليه وسلم حين قال: "إنه سيصيب أمتى فى آخر الزمان بلاء شديد، لا ينجو منه إلا رجل عرف دين الله فجاهد عليه بلسانه وبقلبه، فذلك الذى سبقت له السوابق"[1] لو أن صديقى الدكتور قرأه لما خفيت عليه كنوزه وفوائده.

من ضمن الفرق التى تكلم عنها الكتاب: الوهابية؛ كيف نشأت؟ وكيف دخلت الهند؟ والفرق التى قامت عليها؛ منها الحديثية "السلفية" و"الديوبندية" و"الندوية" (نسبة إلى ندوة العلماء) وجماعة التبليغ...

وهذه المدارس الوهابية فى الهند انتشر خبرها فى بلادنا العربية وذاع

---

(1)رواه البيهقى فى شعب الإيمان.

صيتها وحَسُن الظن بها لأنها تغلفت بأغلفة من اللين والرفق على عكس الوهابية السعودية التى اتسمت بالفظاظة والغلظة. ثم إن هذه الوهابية الهندية الديوبندية ادعت التصوف سلوكًا، والحنفية السنية مذهبا فقهيا، والماتريدية عقيدة فى محاولة منها لتحقيق هذا التزاوج المستحيل بين المتناقضات؛ بين عقائد الوهابية وعقائد أهل السنة.

ومع أن الدكتور "حبيب" والدكتور "س" ممن يقاومون العقيدة الوهابية ويحذرون منها بشدة إلا أننى أخشى أن تكون قد دخلت عليهما من نافذة "الهند" بعد أن أوصدا دونها باب "نجد".

وهأنذا أشرح لهما ـ ولكل من كان مثلهما يريد الحق لا غير ـ ما غاب عنهما، وظنى بهما أنهما ممن يرجعون إلى الحق إذا بزغ نوره

❊ ❊ ❊

كيف توصلت إلى معرفة الإمام أحمد رضا خان البريلوى؟

فى حوالى سنة ١٤٢٢ من هجرة سيد الكائنات صلى الله عليه وسلم الموافق سنة ٢٠٠١ من ميلاد السيد المسيح عليه السلام وقع فى يدى كتاب بعنوان "ساعة مع العارفين" للأستاذ سعيد الأعظمى الندوى طبع دار الاعتصام بالقاهرة، ووجدته يتكلم عن ثلة من العارفين، بدأهم بسيد الطائفة الإمام الجنيد، ثم عدد من الأولياء والعارفين بالهند منهم المجدد الشيخ أحمد السرهندى، والملك الزاهد أورنك زيب والشيخ ولى الله الدهلوى وغيرهم. فرغبت فى إعادة طبع هذا الكتاب خاصة أنه نفد من دار الاعتصام منذ سنوات ولم يُعد طبعه. فأخذت أسأل عن المؤلف حتى أحصل منه على إذن بالنشر. وفعلاً وُفقت ـ بعد مدة ـ للاتصال به وتفضل علينا بهذا الإذن.

من ضمن الشخصيات التى تكلم عنها المؤلف فى كتابه: الشيخ إسماعيل الشهيد، والشيخ أحمد بن عرفان الشهيد. وكلاهما استشهد فى معركة واحدة مع طائفة "السيخ" فى شمال الهند، وقد لاحظت فى ترجمتهما كثيرًا من الغموض، فكتبت ـ آنذاك ـ فى مقدمة الناشر ما يلى:

"ثم نلتقى بالإمام المجاهد الشهيد السيد أحمد بن عرفان الذى أوقد جذوة الجهاد، وقاد المجاهدين حتى لقى ربه فى أشرف ميدان، ميدان الشهادة.

نشأ فى بيئة صوفية كابرًا عن كابر، ورضع لبنها الصافى، لكنه عندما شب استقل عنها، ربما بحثا عن طريق آخر أكثر إرضاءً لنفسه، وربما نفورًا من بعض مظاهر الفساد التى لحقت بالتصوف فى عصره!

على أية حال فإننا نلاحظ بعض الإبهام فى هذه الناحية سواء فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا، أو فيما كتب الشيخ أبو الحسن الندوى عنه فى كتابيه: "إذا هبت ريح الإيمان" و"الإمام الذى لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف".

فهل كان السيد أحمد متأثرًا بالدعوة الوهابية التى نشبت فى جزيرة العرب وأصبحت تسيطر على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة؟

يبدو أن هذا ما حدث فعلاً، وإن كان لم يأخذ عن الوهابية حربهم على المسلمين دون الكفار بدعوى أنهم مشركون، لأنه قام فعلاً بجهاد الكفار فى الهند.

لكن محاولة تطبيق الأفكار الوهابية بالقوة على المسلمين فى "بيشاور" كانت السبب فى النكبة الرهيبة التى تعرض لها السيد ورجاله، إذ قام عليهم الناس ففتكوا بهم فتكًا شديدًا، وكانت هذه النكبة هى السبب الأكبر فى الهزيمة التى منى بها أمام جيش السيخ، والتى استشهد فيها.

ويؤيد هذا الرأى أن صاحبه الشيخ إسماعيل الشهيد له كتاب اسمه "رسالة التوحيد" يشتمل على ترديد واضح لعقائد الوهابية فى تشريك وتكفير المسلمين بسبب زيارة الأضرحة والتوسل بأصحابها[1].

هذا مع أن السيد أحمد بن عرفان لم يكن بحال طالب دنيا ولا ساعيًا للملك، وإنما كانت نيته صادقة فى جهاد أعداء الله، وجمع شمل الأمة، وإن كان أخطأ الطريق إلى ذلك باتباع عقائد المبتدعة والخوارج، عندما انخدع بظاهرهم وما ادَّعوه لأنفسهم من أن دعوتهم دعوة التوحيد.

لكن الإمام اعتذر بعد ذلك بأجمل كلام، مما ينم عن صفاء معدنه، ونيته الحسنة، وصدقه مع الله فيقول رضى الله عنه:

"وأعود فأقول: إن كان هناك تقصير وقع منى نحو الدين ولا أدريه، فيجب أن ينبهنى عليه هؤلاء الناس بالحكمة والموعظة الحسنة... وأسأل علماء الوقت الحاضر أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف ـ للناس عامة ولهذا العاجز خاصة (يقصد نفسه) ـ والنهى عن المنكر،

---

(1) رسالة التوحيد يعنى ترجمة كتاب "تقوية الإيمان" للشيخ إسماعيل بن عبد الغنى الدهلوى الشهيد، تعريب وتعليق وتقديم الشيخ أبو الحسن الندوى، طبع المجمع الإسلامى العلمى، ندوة العلماء، الهند، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.

ويدعونا إلى الطريق المستقيم، وكل مشكلة أو اعتراض يخطر ببالهم أو يتلجلج فى صدورهم يجب أن يشافهونى به، ويقيموا عليه الدليل الشرعى، ليتمكن هذا الفقير من إصلاحه والانتقال من عبادة النفس إلى عبادة الله وحده، وهو مستعد للتوبة من كل ما يخالف أمر الله ورسوله فى قوله وعمله، ويثوب إلى الطريق الصحيح، ولكن الذين يثيرون الخلاف وينالوننى بالاعتراض، إذا لم ينبهونى على ما أقترفه من ذنب، ولم يحدثونى فى هذا الموضوع، فسوف يعود وبال ذلك عليهم وهم مسئولون عنه.." انتهى.

رضى الله عن الإمام المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد، فهو يربينا على الرجوع إلى الحق، كما ربّانا من قبل على حب الجهاد وبذل النفس والمال فى سبيل الله.

وهذه فضيلة أخرى تضاف إلى فضائله، ودرس جديد من دروسه البليغة؛ ما أحوجنا إلى تعلمه والعمل به.

فكم من الناس، إذا اكتشف أحدهم أنه قد خرج عن طريق الله ورسوله، وأوغل فى مسالك الباطل، وأراد أن يتوقف ليعود إلى الحق تمردت عليه نفسه، وخوّفته من الناس، ولو كان مراعيًا لله وحده ما عبأ بالناس ولا بشىء!!

حينئذ يمده الله بعونه وتأييده [1]

* * *

هذه الظنون التى نشأت عندى بمطالعة سيرة الشيخين راحت تتأكد يومًا بعد يوم، وعلمت أن الشيخ إسماعيل الشهيد تأثر بالعقيدة الوهابية وهو أول من بثها فى القارة الهندية، وأن سبب قيام أهل بيشاور على حركة الشيخ أحمد بن عرفان الشهيد هو هذا.

وبعد سنوات عندما طالعت كتاب حدوث الفتن وجهاد أعيان السنن لمؤلفه الشيخ محمد أحمد المصباحى وجدته يذكر الشيخ عبد الغفور السواتى فى الطبقة الأولى من طبقات علماء الهند الذين حاربوا البدع وناضلوا عن الدين الحنيف. فقال عنه:

"إمام المجاهدين، وشيخ الإسلام فى " بيشاور" (من باكستان الآن). حارب الإنجليز محاربات عنيفة، وساعد سيد أحمد الرأى بريلوى (أحمد بن عرفان) والمولوى إسماعيل الدهلوى (الشهيد) حين بلغا " بيشاور" وقاتلا "السيخ". لكن لما أعلنا عقائدهما الشنيعة خالفهما جهارًا، وأمر تلاميذه بالرد عليهما والذب عن حوزة الدين"[2].

---

(1) ساعة مع العارفين لسعيد الأعظمى الندوى، طبعة دار المقطم بالقاهرة ٢٠٠٥م، مقدمة الناشر ص١٠-١٣.

(2) حدوث الفتن وجهاد أعيان السنن للشيخ محمد أحمد المصباحى، طبعة دار المقطم بالقاهرة ٢٠٠٨م ص ١٤٢.

كان أمر السيد أحمد بن عرفان الشهيد لا يزال يشغلنى قبل أن أتعرف على الإمام البريلوى ومدرسته التى ينتمى إليها الشيخ المصباحى مؤلف كتاب "حدوث الفتن".

فى ذلك الوقت كتبت رسالة للدكتور سعيد الأعظمى مؤلف "ساعة مع العارفين" استوضح منه بعض النقاط الغامضة، لكننى لم أجد فى ردِّه ما يشفى الغليل. وكتبت أيضًا لصديقى الدكتور مصطفى سليمان الندوى المقيم بالمنصورة بمصر، وهو ممن تخرجوا من "ندوة العلماء" بالهند، وكان من تلامذة الشيخ أبو الحسن الندوى. ولكن لم تأت منه إفادة أيضًا.

ثم ساق الله إلىّ أحد طلاب الدراسات العليا بالأزهر الشريف واسمه عبد النصير أحمد ناتور من ولاية "مليبار" بجنوب الهند، وعلمت منه أن مسلمى مليبار كلهم شافعية ويتكلمون ويكتبون باللغة المليبارية، بينما أهل الشمال حنفية ويتكلمون اللغة الأردية وحروفها عربية.

على يد الشيخ عبد النصير ـ جزاه الله خيرًا ـ بدأت معرفتى بالإمام أحمد رضا خان البريلوى.

نسيت أن أذكر أننى فى عدة زيارات للهند ـ أيام كنت أخرج مع "جماعة التبليغ" ـ تولّد عندى انطباع أكيد ـ عن غير معرفة واضحة ـ أن البريلوية هذه فرقة مارقة من الدين، مثل القاديانية والبهائية.. وأن لهم ممارسات لا تمت للإسلام بصلة. وفى مرة قابلت بالقاهرة أحد العلماء الهنود وهو يدرِّس بإحدى الجامعات فى السعودية، فسألته عن البريلوية

فقال نفس الشىء.

فلما ذكر لى الشيخ عبد النصير أن "البريلوية" هم أهل السنة فى الهند دُهشت، لكنه أمدنى ببعض مؤلفات الإمام وبعض ما كُتب عنه، فكان أول ما لفت نظرى محبته الشديدة للنبى صلى الله عليه وسلم ومدحه له بقصائد ودواوين.

ولقد تعلّمت ـ بالمشاهدة ـ أن محبة النبى صلى الله عليه وسلم درجة عُليا لا يهبها الله لمبتدع ولا منافق ولا مستريب. هى الدرجة التى إذا ترقى إليها إنسان وَثِقْتَ فى دينه وأَخَذْتَ عنه وأنت مطمئن كل الاطمئنان، لأن المعصوم صلى الله عليه وسلم قال: "المرء مع من أحب".

ولا تجد مبتدعًا قط إلا ومحبة النبى صلى الله عليه وسلم عنده ناقصة.

* * *

لما قرأت عن الشيخ الإمام وقعت محبته فى قلبى، ومن محبتى له أحببت أن أكتب عنه، ووفقنى الله لهذا، فكان أول الثلاثة الذين كتبت عنهم فى كتاب لى بعنوان "من أقطاب الأمة فى القرن العشرين".

ولما صدر هذا الكتاب أمدّنى البعض بمزيد من المراجع والكتب، فاتسعت أمام ناظرى مساحة النور المنبثقة من هذا الإمام الكبير فأعدت كتابة الكتاب بما يتناسب مع ما توفّر لدى من معرفة جديدة. وأنا على يقين ـ الآن ـ أن بحر الإمام واسع لم اغترف منه إلا القليل.

من هو أحمد رضا خان البريلوى

هو الإمام الربانى الذى حمل همّ الإسلام على عاتقه، ووقف حياته كلها قائما ساهرًا على ثغر من ثغوره بالقارة الهندية الكبيرة منافحًا عن سلامة الدين ومنهج السنة النبوية الشريفة. وفى سبيل ذلك تعرّض إلى ما تعرض إليه أنبياء الله ورجاله المخلصين من شتى أنواع الإيذاء والتشهير التى لاحقته فى حياته وبعد انتقاله إلى جوار ربه.

وُلد ببلدة "بريلى" وأصبح يُنسب إليها: "البريلوى"، وهى مدينة مشهورة بالهند تبعد عن "دلهى" العاصمة بمائة وخمسة وثلاثين ميلا.

وكان مولده سنة ١٢٧٢هـ الموافق سنة ١٨٥٦م، ونشأ فى أسرة دينية، وبيئة صالحة، فورث العلم ومكارم الأخلاق كابرًا عن كابر.

فجدّه هو الشيخ رضا على خان، كان من كبار العلماء والصلحاء، وقام بالإفتاء والإرشاد والتدريس والتصنيف، وكان من أكابر شيوخ التصوف، التف حوله المريدون، وقضى حياته فى زهد وعبادة، وأظهر الله على يديه الكرامات.

أما أبوه فهو الشيخ محمد نقى على، ومولده بمدينة "بريلى" أيضا، وكان من مشايخ التصوف ومن علماء الأحناف الكبار، اشتهر بالزهد

والورع وسعة العلم والسخاء والاستغناء عن الناس، وكان من المجاهدين من أجل إشاعة السنة وإماتة البدعة، وله مواقف ومآثر جليلة فى الرّد على الوهابية وغيرها من البدع، وله فى ذلك تصانيف مهمة.

كانت تربيته ونشأته ـ إذن ـ على يد هذا الوالد وهذا الجد، فكانا أول شيوخه، وعرفانا بفضلهما عليه ذكرهما فى إحدى قصائده باللغة العربية ويثنى عليهما ويدعو لهما فيقول:

وارحم أبى وأباه رحما دائمـا	**واجعل قبورهما رياض جنان**
آنسهما اللهم فى جَدَثيهما	**بالحور والغلمان والرضـوان**
أبدلهما دارًا وجـارًا خيِّـرًا	**من هـؤلاء الدور والجيـران**

منهما تعلم حب الله ورسوله، وأصبح هذا الحب ـ بفضل الله ومَنِّه ـ يجرى فى دمائه، ويمتزج بخلايا لحمه وعظمه. وأفيض عليه من مواهب الله ما أدهش أهل عصره، المحب له والمبغض على حد سواء.

اشتهر عنه أنه حفظ القرآن الكريم كله فى شهر، وهو أمر لا يمكن حدوثه إلا بعطاء وهبى، وأتم دراسته فى مختلف العلوم العقلية والنقلية وهو دون الرابعة عشرة من عمره، وعلوم أخرى كثيرة حصلت له عن طريق الوهب، ولم يكن له فيها معلم.

وفى سن العاشرة صنف أول كتاب باللغة العربية وهو "شرح هداية النحو"، وبلغت العلوم التى برع فيها عددًا كبيرًا لم يُعرف مثله عن غيره من قبل، وقد سرد تفاصيل تلك العلوم والفنون فى أحد كتبه، وكانت له ابتكارات لم يسبق إليها، منها ـ على سبيل المثال ـ أنه ابتكر عشر قواعد

لمعرفة القبلة من أى جزء من العالم، ومما ذاع خبره عن الشيخ أن واحدًا من أكبر علماء الرياضيات فى القارة الهندية فى زمنه قابلته مسألة رياضية شديدة الصعوبة، فلما عجز تماما عن حلِّها عزم على السفر إلى أوروبا لعرضها على علماء الرياضيات هناك، لكن أحد أصدقائه نصحه بأن يذهب إلى الإمام فى "بريلى" بدلا من السفر، فاستخف بكلامه أول الأمر، ولكنه مع إلحاح صديقه ذهب إلى "بريلى"، وما إن عرض المسألة على الإمام حتى أجاب بحلها بدون عناء وفى أقل وقت، مما جعل الدكتور ـ صاحب المسألة ـ يقول: كنا نسمع عن العلم اللدنى سماعًا، وها هو ذا رأيناه بعيوننا.[1]

قال الشيخ كوثر النيازى وزير الشئون الإسلامية والأقليات سابقا فى كتابه "الإمام أحمد رضا الحنفى البريلوى وشخصيته الموسوعية":

"عندما تستخدم كلمة "آل حضرت" فى اللغة الأردية يُقصد بها سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، أما لقب "أعلى حضرت" فيراد به أحد خدام الجناب النبوى وهو الإمام أحمد رضا. ونجد عند التأمل أن هذه المرتبة لم تُمنح له لحسن ظن أتباعه، إنما هى منحة إلهية، أكرمه الله تعالى بها بسبب فنائه فى حب الرسول صلى الله عليه وسلم، وبسبب شخصيته الجامعة.. أى علم أو فن لم تكن للإمام أحمد رضا فيه براعة فائقة؟ التفسير، الحديث، الفقه، الهندسة، الهيئة، الجفر، الكيميا، الاقتصاد، الرياضيات، الطبيعيات، السياسيات، الطب، الجغرافية،

(1) من أقطاب الأمة فى القرن العشرين، الطبعة الثالثة ص٨١.

التاريخ، المناظرة، المنطق، الفلسفة، الجبر والمقابلة، النحو، الصرف، علم المعانى، علم البيان، علم البديع، القراءة والتجويد، التصوف، السلوك، علم اللغة، الشعر، الأدب، خط النسخ، .. وغير ذلك. عدَّد كُتّاب سوانحه ستين علمًا كان الإمام فيها جميعًا قدوة، ولم يكن فقط أديبا عظيمًا أو خطيبًا بارعًا أخاذا، بل كان مع هذا وذاك مناظرًا بارعًا ومتكلما فقيها، ومحدثا ومفسرًا، ومع كل هذا سياسيًا بطلاً، لم يخطئ عندما تحدث عن نفسه من باب التحديث بالنعمة (فقال ما ترجمته):

أيها الرضا! قد مُنِحت لك السلطة وإمارة الكلام وإلى أى ناحية جئت تغلّبت"[1]

كان ذا باع طويل فى العلوم الطبيعية وعلوم الفلك، وقد أبطل نظريات بعض علماء الفلك الغربيين، كما ردّ على العالم الفلكى الأمريكى الذى تنبأ بدمار الولايات المتحدة فى تاريخ حدّده باليوم، سنة ١٩١٩، وبين بطلان ادعائه بسبعة عشر دليلا، وذلك فى كتابه "معين مبين بهر دور شمس وسكون زمين" باللغة الأردية، وردّ على نظريات أينشتين ونقضها قبل أن ينقضها علماء الغرب وذلك فى كتابه "فوز مبين در رد حركة زمين" وردّ أيضا على نظرية الجاذبية الأرضية وأقام على بطلانها خمسين دليلا، وردّ على الفلاسفة قديما وحديثا بأوسع مما ردّ عليهم حجة الإسلام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ وذلك فى كتابه "الكلمة الملهمة فى الحكمة المحكمة لوهاء فلسفة المشأمة" والذى تضمن أيضا بحثا علميًا

---

(1) الإمام أحمد رضا الحنفى البريلوى وشخصيته الموسوعية، كوثر النيازى، ترجمة ممتاز أحمد السديدى، أكاديمية رضا، لاهور، باكستان، ١٩٩٥م، ص١٥.

عن الذرة، وصفه العلامة الغورى بقوله إن "تفصيل البحث يقتضى مقدمة مستقلة لا يستطيع أن يؤدى حقها"[1]

لذلك كانت خسارة المسلمين بتبنى نظم التعليم الغربية خسارة فادحة، جعلتهم فى ذيل الأمم بعد أن كانوا فى مقدمتها، ذلك لأن نظام التعليم الإسلامى يجعل الله هو الغاية، فمن صدق فى تحقيق ذلك أمده الله بالفهوم والعلوم التى تعجز عنها علوم الكسب.. وها هو ذا الإمام أحمد رضا خان البريلوى يقدم لنا دليلا جديدا على صدق قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

كان شاعرًا مجيدًا، نظم الشعر باقتدار فى لغات ثلاث: العربية والفارسية والأردية، وتفوق على الشعراء كما سيجيىء بيانه إن شاء الله تعالى.

قال العلامة الدكتور حسين مجيب المصرى فى تقديمه لكتاب "الشيخ أحمد رضا خان البريلوى":

".. إنه يختلف عن كثير من أقطاب العلماء والفقهاء بكثرة ما أخرج من كتب قيل إنها تجاوزت الألف، وهذا ما لا علم لنا بمثله عند من سواه من أهل العلم".

---

(1) انظر كتاب الشيخ أحمد رضا خان البريلوى وشئ من حياته وأفكاره، د. محمد مسعود أحمد، ترجمة محمد عارف المصباحى، مؤسسة الشرق، كراتشى، باكستان، ٢٠٠٥م، ص٨١-٨٤.

قال الدكتور بير محمد حسن عضو مجمع البحوث الإسلامية بإسلام آباد: "كان يحمل فى صدره بحرًا من العلوم، ولم يكن يستطيع أن يمسك هذا البحر العلمى فى صدره، كما قال الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى: إننى ما قصدت من مصنفاتى أن أكون مصنفا كبيرًا، بل لو لم أصنف هذه المصنفات لاحترق بدنى. وهذا الكلام يصدق على الإمام أحمد رضا خان"[1]

أما فى الفقه فقد كان منعدم النظير فى زمنه، وحتى أعداؤه أقروا له بذلك، ولسوف نجئ إلى تفاصيل ذلك فى فصل لاحق إن شاء الله.

قال عنه الشيخ أبو الأعلى المودودى: "وإننى أحترم الإمام أحمد رضا خان من أعماق قلبى، لأنه كان عالمًا دينيًا كبيرًا، ذا نظر عميق فى العلوم الدينية، وقد اعترف بفضله مخالفوه أيضًا"[2]

ويقول عنه الشيخ عبد الحى اللكهنوى فى "نزهة الخواطر" : "إنه كان عالمًا رُزق التبحر فى شتى العلوم والفنون، واسع الاصلاع إلى الغاية، قلمه سيال، وفكره عميق فى التأليف.. أما علمه بالفقه الحنفى فلا نعرف له ندًا يشبهه أو يقاربه فى إحاطته به".

وقال عنه علامة الهند الشاعر محمد إقبال:

"إن شبه القارة الهندية من أقصاها إلى أقصاها لم يولد فيها من يشبه

---

(1) الإمام أحمد رضا خان وأثره فى الفقه الحنفى، رسالة ماجستير بجامعة الأزهر، مشتاق أحمد شاه، طبع مؤسسة الشرف بلاهور، باكستان، ١٩٩٧م، ص١٤٦.

(2) الإمام أحمد رضا خان وأثره فى الفقه الحنفى، ص١٤٦.

أحمد رضا خان فى عبقريته التى لا يجود الزمان على أحد بها يدانيها، وهذا واضح بالوضوح الأتم فى فتاواه. إنها شاهد صدق على حدة ذكائه وعمق تفكيره فى تدبر ما يبدى الرأى فيه على أنه الفقيه الحق بالمعنى الأصح الأدق، الذى تضلع فى شتى علوم الدين على نحو لا نصادفه عند غيره"[1]

❋ ❋ ❋

---

(1) الإمام أحمد رضا خان القادرى وجهوده فى مجال العقيدة الإسلامية فى شبه القارة الهندية، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، سيد محمد جلال الدين، ٢٠٠٦م، ص٧٤.

أهداف الإمام الثلاثة:

لم يكن طلبه العلم ـ منذ البداية ـ من أجل دنيا يصيبها، أو حظ من حظوظ النفس يُشبعه.. إنما طلب العلم، وبثه، وصنف المصنفات تقربا إلى الله، وطلبًا لمرضاته، وقد حدّد لحياته العامرة، وعلومه الفائقة، ومصنفاته الكثيرة ثلاثة أهداف لا يخرج عنها.

ذكر هذه الأهداف الثلاثة فى "الإجازات المتينة لعلماء مكة والمدينة" فقال:

"أما فنونى التى أنا بها ولها، ورُزقت حبها فثلاثة:

١-أول الكل، وأولى الكل، وأعلى الكل، وأغلى الكل: حماية جانب سيد المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ـ من إطالة لسان كل وهابىّ مَهين، بكلام مُهين، وهذا حسبى إن تقبل ربى، وهذا ظنى بربى وقد قال: "أنا عند ظن عبدى بى"

٢-ثم نكاية بقية المبتدعين ممن يدعى الدين، وما هو إلا من المفسدين.

٣-ثم الإفتاء بقدر الطاقة على المذهب الحنفى المتين المُبين.

فهل أفلح الشيخ فى تحقيق هذه الأهداف؟

نعم، بل إنه رُزق ـ ببركة إخلاصه وصدقه ـ الدرجة العليا فى تحقيق كل واحد من هذه الأهداف الثلاثة، وهذا ما سنجتلى خبره فى الفصول القادمة إن شاء الله تعالى.

❋ ❋ ❋

الهدف الأول :

الدفاع عن النبى صلى الله عليه وسلم

أولا: الدفاع عن النبى صلى الله عليه وسلم

إذا وقع الكافر فى سب نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه فهذا أمر لا يُستغرب، لأن ما وقع فيه من الكفر أشد، وليس بعد الكفر ذنب، ما سبه إلا لجهله به، ولو عرفه صلى الله عليه وسلم لآمن به وصدّقه وأحبه الحب كله.

أما المسلم إذا سقط فى منحدر تنقيص النبى صلى الله عليه وسلم فهذه مصيبة كبرى، بل إن أحدا من المسلمين ما كان ليتصور ـ أصلاً ـ أن مسلمًا يجحد فضل الرسول عليه، فضلا عن أن ينال من مقامه السامق الرفيع بلسانه القبيح، إلا أن يكون منافقًا خالصًا ممن فضحهم الله تبارك وتعالى فى كتابه الكريم فى مواضع كثيرة.

كيف بدأت فتنة التطاول على مقام النبى الأعظم صلى الله عليه وسلم؟

عندما ظهر ابن تيمية فى القرن الثامن الهجرى لمع نجمه بسرعة إذ أن الله سبحانه وتعالى أنعم عليه بنعمة الحفظ وغزارة العلم وطلاقة اللسان، وسيولة القلم.. لكنه لم يقابل نعمة الله بالشكر إذ تملكه الإعجاب بنفسه،

والزهو على غيره، وأصبح يردّ على العلماء؛ صغيرهم وكبيرهم، ولم يسلم من لسانه أئمة الأمة وأولياؤها الصالحون، بل نال به جلة الصحابة حتى خاض فى المقام النبوى الشريف. فعندما اطّلع على كتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم" للقاضى عياض الذى تناول فيه بعض صفات النبى صلى الله عليه وسلم ومواهب الله له قال قولته الشنيعة: "غلا هذا المغيربى"[1].

وأفتى بمنع زيارة النبى صلى الله عليه وسلم حتى ادعى أن السفر لزيارة حبيب رب العالمين مُحرَّم بالإجماع!! وأن الصلاة لا تقصر فيه لعصيان المسافر به، وأن سائر الأحاديث الواردة فى فضل الزيارة موضوعة.[2]

وأفتى كذلك بأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يُستغاث به.

ذكر ابن حجر العسقلانى فى "الدرر الكامنة" بعض هذه الفتاوى وكيف تصدى له العلماء حتى قال: "ومنهم (أى من العلماء) من نسبه إلى الزندقة لقوله إن النبى صلى الله عليه وسلم لا يُستغاث به، وأن فى ذلك تنقيصا ومنعا من تعظيم النبى صلى الله عليه وسلم."

وكانت هذه الفتاوى ـ مع غيرها ـ وراء سجنه بإجماع مشايخ المذاهب الأربعة درءًا للفتن التى أثارها بين عوام المسلمين..

---

(1) فهرس الفهارس لعبد الحى الكتانى، دار الغرب الإسلامى، بيروت جـ١، ص٢٧٧.

(2) شواهد الحق فى الاستغاثة بسيد الخلق صلى الله عليه وسلم، يوسف بن اسماعيل النبهانى، طبع الحلبى، ص١٥.

* * *

ولكن فتنة ابن تيمية لم تنته بسجنه، وبتصدى علماء الأمة له. إنما كُبتت إلى حين. حتى كان القرن الثانى عشر الهجرى، أى بعد ما يقرب من أربعمائة عام إذ نهض بجزيرة العرب داعية جديد، استخرج من علم ابن تيمية الغزير هذه الفتاوى فلم ير غيرها، وبنى دينه كله على أساسها.

أقام محمد بن عبد الوهاب الداعية النجدى دعوته على أساس أن الأمة قد ارتدت عن الإسلام بسبب توسلها بالنبى صلى الله عليه وسلم وبأولياء الله الصالحين، وبسبب زيارتها لقبر نبيها صلى الله عليه وسلم وقبور الصالحين، وسماها أتباعه بعبادة القبور، واعتبروا تعظيم النبى صلى الله عليه وسلم إشراكا له فى عبادة الله إلى غير ذلك من الشذوذ القبيح.

فراحوا ينتقصون من قدره صلى الله عليه وسلم، ويدّعون أنه بعد أن بلّغ الرسالة قد انتهى أمره، لذلك حاربوا كل ما من شأنه توقير النبى صلى الله عليه وسلم وإذكاء محبته والإكثار من الصلاة والسلام عليه.

كان العلامة السيد أحمد زينى دحلان مفتى الشافعية ببلد الله الحرام ممن عاصروا أحداث هذه الفتنة، وممن كتب فى الردّ عليها، وفى كتابه "الدرر السنية فى الردّ على الوهابية" قال:

> وكان (أى محمد بن عبد الوهاب) ينهى عن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ويتأذى من سماعهاوينهى عن الإتيان بها ليلة الجمعة وعن الجهر بها على المنائر،

ويؤذى من يفعل ذلك ويعاقبه أشد العقاب، حتى أنه قتل رجلا أعمى كان مؤذنا صالحا ذا صوت حسن نهاه عن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى المنارة بعد الأذان فلم ينته وأتى بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فأمر بقتله فقتل،ثم قال: إن الربابة فى بيت الخاطئة يعنى الزانية أقل إثما ممن ينادى بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى المنائر، ويُلبّس على أصحابه بأن ذلك كله محافظة على التوحيد. فما أفظع قوله وما أشنع فعله، وأحرق "دلائل الخيرات" وغيرها من كتب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم، ويتستر بقوله: إن ذلك بدعة وإنه يريد المحافظة على التوحيد. وكان يمنع أتباعه من مطالعة كتب الفقه والتفسير والحديث وأحرق كثيرا منها، وأذن لكل من اتبعه أن يفسر القرآن بحسب فهمه حتى همج الهمج من أتباعه، فكان كل واحد منهم يفعل ذلك ولو كان لا يحفظ القرآن ولا شيئا منه، فيقول الذى لا يقرأ منهم لآخر يقرأ: اقرأ على حتى أفسّر لك، فإذا قرأ عليه يفسر له برأيه. وأمرهم أن يعملوا ويحكموا بما يفهمونه، وجعل ذلك مقدما على كتب العلم ونصوص العلماء. وكان يقول فى كثير من الأقوال: الأئمة الأربعة ليست بشىء، وتارة يتستر ويقول: إن الأئمة على حق ويقدح فى أتباعهم من العلماء الذين ألفوا فى المذاهب الأربعة

وحرروها، ويقول إنهم ضلوا وأضلوا، وتارة يقول: إن الشريعة واحدة فما لهؤلاء جعلوها مذاهب أربعة، هذا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا نعمل إلا بهما ولا نقتدى بقول مصرى وشامى وهندى: يعنى بذلك أكابر علماء الحنابلة وغيرهم ممن لهم تآليف فى الرد عليه، فكان ضابط الحق عنده ما وافق هواه وإن خالف النصوص الشرعية وإجماع الأمة، وضابط الباطل عنده ما لم يوافق هواه وإن كان على نص جلى أجمعت عليه الأمة. وكان ينتقص النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا بعبارات مختلفة، ويزعم أن قصده المحافظة على التوحيد؛ فمنها أن يقول إنه طارش، وهو فى لغة أهل المشرق بمعنى الشخص المرسل من قوم إلى آخرين، فمراده أنه صلى الله عليه وسلم حامل كتب: أى غاية أمره أنه كالطارش الذى يرسله الأمير أو غيره فى أمر لأناس ليبلغهم إياه ثم ينصرف؛ ومنها أنه كان يقول: نظرت فى قصة الحديبية فوجدت بها كذا وكذا، إلى غير ذلك مما يشبه هذا حتى أن أتباعه كانوا يفعلون مثل ذلك أيضًا ويقولون مثل قوله بل أقبح مما يقول ويخبرونه بذلك فيظهر الرضا، وربما أنهم قالوا ذلك بحضرته فيرضى به، حتى إن بعض أتباعه كان يقول: عصاى هذه خير من محمد لأنها ينتفع بها فى قتل الحية ونحوها ومحمد قد مات ولم يبق فيه نفع أصلا وإنما

هو طارش وقد مضى"[1].

وصلت هذه الأفكار إلى الهند، فيما وصلت إليه من بلاد الإسلام، ووجدت هناك البيئة المناسبة لانتشارها فى ظل الانجليز فوقع فى حبائلها من وقع، وقامت لها مدارس ومعاهد، ونشأ بها علماء وأسماء كبار وصغار، اجتهدوا فى نشر هذا الفكر وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا، وتطاول بعضهم فى كتبه على مقام الألوهية ومقام النبوة.

* * *

وكان أبرز من سقطوا فى هذا المستنقع الوبيل عدد من مشايخ مدرسة "ديوبند" أكبر المدارس الدينية فى الهند، والتى نشأت ونمت برعاية الانجليز وتشجيعهم لكل ما من شأنه هدم الدين الإسلامى[2].

والديوبندية ـ نقلا عن كتاب "الدعوة إلى الفكر" ـ هم المتخرجون من دار العلوم "ديوبند" (الهند) والمنتسبون إليهم فى المعتقدات، وهم قد اختاروا فى بيان عقيدة التوحيد منهجًا أفضى إلى تنقيص شأن الأنبياء والأولياء وتكفير عامة المسلمين فى كل البلاد الإسلامية.. قال الشيخ "أنظر شاه الكشميرى" شيخ التفسير بدار العلوم ديوبند:

" ليس مدار أمرنا على الشيخ عبد الحق المحدث
الدهلوى فإنه لم يستطع أن يفرق بين السنة والبدعة،

---

(1) الدرر السنية فى الرد على الوهابية للسيد أحمد زينى دحلان، المكتبة الثقافية، بيروت،ص ٤٤-٤٥

(2) انظر "من أقطاب الأمة فى القرن العشرين" ص ٥٨ – ٦٨ من الطبعة الثالثة.

ولا على الشيخ الشاه ولى الله المحدث الدهلوى، إنما مدار جماعتنا الديوبندية على الشيخ محمد قاسم النانوتوى والشيخ رشيد أحمد الكنكوهى"[1].

* * *

الشيخ محمد قاسم النانوتوى

وقع خلاف شديد بين علماء "ديوبند" وعلماء أهل السنة فى الهند حول أثر ابن عباس الذى يقول: " إن الله خلق سبع أرضين فى كل أرض آدم كآدمكم، ونوح كنوحكم، وإبراهيم كإبراهيمكم، وموسى كموسكم، وعيسى كعيسكم، ونبى كنبيكم"[2].

علماء "ديوبند" يصرون على صحة هذا الأثر، وعلماء السنة ينكرونه أشد الإنكار لأنه يطعن فى مسألة ختم النبوة. وكان هذا الموقف من "الديوبندية" "أول هجوم على العقيدة الأساسية المحكمة، عقيدة ختم النبوة، وأثار هذا القول (منهم) فتنة كبيرة بين مسلمى الهند، فأقيمت مناظرات عديدة ومباحثات حول هذه القضية، وأُلِّفت فيها رسائل وكتب، ومنها كتاب "تحذير الناس فى أثر ابن عباس" للشيخ محمد قاسم

---

(1) انظر المجلة الشهرية "البلاغ" كراتشى، عدد مارس ١٩٦٩ ص ٤٨.

(2) سألت فضيلة الأستاذ نجاح عوض صيام عن هذا الأثر فأفادنى بما يلى: رواه البيهقى فى "الأسماء والصفات"، وقال: إسناده عن ابن عباس صحيح، وهو شاذ (أى لا يعمل به) بالمرة. وقال الشيخ عبد الله بن الصديق فى "الأحاديث الشاذة المردودة" ص٩٩: ولا دليل يدل على ذلك من عقل ولا نقل.

النانوتوى مؤسس مدرسة ديوبند."[1]

فى هذا الكتاب راح المؤلف يدافع عن هذا الأثر مدللاً على صحة معناه فى عبارات كثيرة أوردها مؤلف كتاب "الدعوة إلى الفكر" مع تصوير الغلاف والصفحات التى تتضمن تلك العبارات التى منها قوله:" لو وُلد نبى بعد زمانه (أى بعد زمان النبى صلى الله عليه وسلم) لما أخل بالخاتمية المحمدية" وقوله: "وإنما يتخيل العوام أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم النبيين بمعنى آخر النبيين مع أنه لا فضل فيه أصلاً عند أهل الفهم"[2]

يقول الأستاذ القصورى: "إن هذا الكتاب صار مسندًا كبيرًا للقاديانيون، فإنه هيأ لهم دلائل وبراهين على خلاف عقيدة ختم النبوة، والقاديانيون يضعون مقتبسات هذا الكتاب فى مقدمة دلائلهم فى كتبهم ومنشوراتهم إلى يومنا هذا "[3]

وسوف نلتقى بعد قليل ـ إن شاء الله ـ مع القاديانية ونبيها الكذاب عند الحديث عن الهدف الثانى للإمام أحمد رضا.

* * *

الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى

نُسب إليه القول بإمكانية الكذب على الله. قال الشيخ أحمد رضا فى

---

(1) الدعوة إلى الفكر للأستاذ محمد القصورى، مؤسسة رضا، الجامعة النظامية الرضوية، لاهور، ص٩.

(2) انظر نفس المرجع ص ٣٣-٤١.

(3) الدعوة إلى الفكر ص٩.

كتابه "حسام الحرمين":

"صرّح فى فتوى له ـ قد رأيتها بخطه وخاتمه ـ بعينى ـ وقد طبعت مرارًا فى بمباى وغيرها مع ردّها ـ أن من يكذّب الله تعالى بالفعل ويصرّح أنه سبحانه وتعالى قد كذب وصدرت منه هذه العظيمة فلا تنسبوه إلى فسق فضلاً عن ضلال، فضلاً عن كفر، فإن كثيرًا من الأئمة قد قالوا بقيله، وإنما قصارى أمره أنه مخطئ فى تأويله"[1].

ونُسب إليه أيضًا القول بأن علم النبى صلى الله عليه وسلم أقل من علم الشيطان وملك الموت، واتَّهم بالكفر والشرك من يدعى له ـ صلى الله عليه وسلم ـ علمًا محيطا.

قال: "علم محيط بالأرض ثابت للشيطان وملك الموت بالنص، ولا يوجد نص لإثبات علم محيط بالأرض للنبى صلى الله عليه وسلم، ومع هذا لو أثبت هذا العلم للنبى صلى الله عليه وسلم لثبت الشرك والكفر"[2].

قال الإمام أحمد رضا:

" وقد عرضت قوليه هذين، أعنى ما اقترف من تكذيب الله ـ سبحانه ـ وتنقيص علم رسول الله صلى الله

(1) حسام الحرمين على منحر الكفر والمين للإمام أحمد رضا خان البريلوى، دار أهل السنة للطباعة والنشر والتوزيع، ومؤسسة رضا، لاهور، باكستان ٢٠٠٦،ص٥٨.

(2) الدعوة إلى الفكر ص٤٥.

عليه وسلم، على بعض تلامذته ومريديه، فعارضني وقال:

ما كان شيخنا ليتفوه بأمثال هذا الكفر.

فأريته الكتاب[1].. ففاجأه الاضطراب إلى أن قال:

ليس هذا الكتاب لشيخي، إنما هو لتلميذه خليل أحمد السهارنفوري.

فقلت: هو قد قرّظ عليه وسمّاه كتابا مستطابًا وتأليفًا نفيسًا، ودعى الله تعالى أن يتقبله، وقال: "هذا الكتاب دليل واضح على سعة نور علم مؤلفه وفسحة ذكائه وفهمه وحسن تقريره وبهاء تحريره"

فقال: لعلّه لم ينظر فيه مستوعبًا، إنما نظر بعض مواضع متفرقة واعتمد على علم تلميذه!

قلت: كلا..! بل قد صرّح فيه أنه رآه بنظر غائر، وهذا لفظه في التقريظ: "أن أحقر الناس رشيد أحمد الكنكوهي طالع هذا الكتاب المستطاب "البراهين القاطعة" من أوله إلى آخره بإمعان النظر"

---

(1) "البراهين القاطعة" للشيخ خليل أحمد السهارنفوري تقريظ الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي. والشيخ خليل السهانفوري هو صاحب كتاب "بذل المجهود في شرح سنن أبي داود". وقال صاحب "الدعوة إلى الفكر" إن كتابه "البراهين القاطعة" هو في الحقيقة من تصنيف شيخه الكنكوهي نقلاً عن كتاب نزهة الخواطر ٨/ ١٥١.

فبُهت الذى كابر، والله لا يهدى كيد المكابرين"[1]

* * *

الشيخ أشرف على التانوى

وقع من آخرين من علماء "ديبوبند" أقوال شنيعة قام ضدّها علماء أهل السنة منها قول الشيخ أشرف على التانوى: "إن صح الحكم على ذات النبى المقدسة بعلم المغيبات ـ كما يقول به زيد ـ فالمسئول عنه أنه ماذا أراد بهذا؟ أبعض الغيوب أم كلها؟ فإن أراد البعض، فأى خصوصية فيه لحضرة الرسالة؟ فإن مثل هذا العلم بالغيب حاصل لزيد وعمرو، بل لكل صبى ومجنون، بل لجميع الحيوانات والبهائم، وإن أراد الكل بحيث لا يشذ منه فرد، فبطلانه ثابت نقلاً وعقلاً"[2]

وقال الشيخ محمد إسماعيل الدهلوى (الشهيد) فى كتاب "الصراط المستقيم": إن التخيل بمجامعة الزوجة أفضل من وسوسة الزنا والتوجه إلى شيخه وأمثاله من المعظمين ولو كان النبى صلى الله عليه وسلم أقبح من الانهماك فى تصور بقرته وحماره."[3]

أمثال هذه الأقوال من علماء "ديوبند" أثارت الفتن الشديدة فى القارة الهندية، وقام لها علماء أهل السنة لصيانة عقائد المسلمين منها، بعد أن فشت فى الناس عن طريق كتبهم ودروسهم، وكان علماء ديوبند يصرون على هذه الأقوال ولا يوافقون على ما دعاهم إليه علماء السنة من

---

(1) حسام الحرمين ص٦١.

(2) حسام الحرمين ص٦٣، وانظر الأصل المصور فى كتاب الدعوة إلى الفكر ص٤٢-٤٣.

(3) الدعوة إلى الفكر ص٥١.

حذفها من كتبهم إن كانوا لا يقصدون ظاهر ما يفهم منها.

قام الشيخ الإمام بتكفير هذه الأقوال ومهاجمة من سقطوا فيها، بعد أن حاول بالحسنى لفت أنظارهم إلى مفاسد هذه الأقوال، لعلهم يرجعون عنها فتخمد نيران الفتنة.

قال الأستاذ محمد القصورى: "كتب الشيخ أحمد رضا خان البريلوى رسالة إلى الشيخ أشرف على التانوى قبل أن يفتى بالكفر على عبارته إتمامًا للحجة، وبهذا يظهر أن الشيخ لم يكن متعجلاً فى الإفتاء بالكفر على أحد"[1]

ثم أورد نص الرسالة، وبدايتها توحى بأنه قام بمحاولات كثيرة سابقة للقاء الشيخ أشرف ومناقشته فيما قال، وها هو ذا صدر الرسالة:"إلى مولوى أشرف على صاحب التانوى:

بسم الله الرحمن الرحيم. نحمده ونصلى على رسوله الكريم

السلام على من اتبع الهدى.

لم يزل هذا الفقير إلى حضرة العزيز القدير عز جلاله، يدعوكم منذ زمن طويل..."[2]

* * *

(1) الدعوة إلى الفكر ص١٠٦.

(2) انظر نص الرسالة كاملا فى نفس المصدر، وتاريخها ١٥ صفر سنة ١٣٢٩هـ.

تأييد علماء أهل السنة

لم يكتف الإمام بالرد على البدعة "الديوبندية" وتأليف عشرات، بل مئات الكتب والرسائل فى ذلك، بل إنه جمع ما ثبت من أقوالهم الفاسدة المفسدة فى كتاب "المستند المعتمد" وعرضها على علماء الإسلام فى بلد الله الحرام ومدينة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وهما يومئذ محط العلماء من جميع بقاع الإسلام، وبعث إليهم برسالة تقطر مرارة وأسى.

وها هى ذى مقتطفات من رسالته إلى علماء الحرمين التى صدر بها كتابه "حسام الحرمين على منحر الكفر والمين":

بسم الله الرحمن الرحيم، نحمده ونصلى على رسوله الكريم.

سلام منا ورحمة الله وبركاته على سادتنا علماء البلد الأمين، وقادتنا كبراء بلد سيد المرسلين ـ صلى الله تعالى وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ وبعد،

فإن المعروض على جنابكم، بعد لثم أعتابكم، عرض محتاج فقير، مظلوم أسير، ذى قلب كسير، على عظماء كرماء، أسخياء رحماء، يدفع الله بهم البلاء والعنا.. إن السنة فى الهند غريبة، وظلمات الفتن والمحن مهيبة، قد استعلى الشرّ، واستولى الضّر، وتفاقم الأمر، فالسُّنى

الصابر على دينه كالقابض على الجمر.. فالغياث الغياث يا خيل الله، يا فرسان عساكر رسول الله، أمدونا بمدّة، وأعدوا لدفع الأعداء عدة، وشدوا عضدنا فى هذه الشّدة.. إن رجلا من علماء بلادنا (يعنى نفسه) الملقب على لسان عمائدنا وأسيادنا بعالم أهل السنة والجماعة، وقف نفسه على دفع تلك الضلالة والشناعة، فصنف كتبا، وألف خطبًا، تنوف كتبه على مئتين.. منها شرح علقه على "المعتقد المنتقد"[1] سماه "المستند المعتمد"[2] وقد تكلم فى مبحث شريف على أصول البدع الكفرية الشائعة الآن فى الديار الهندية، نعرض منها ذكر بعض الفرق بلفظه، ليتشرف منكم بنظرة وتصديق.. وتذكروا صريحًا أن أئمة الضلال الذين سمّاهم، هل هم كما قال، فمقاله فيهم بالقبول حقيق، أم لا يجوز تكفيرهم، ولا تحذير العوام وتنفيرهم عنهم؟ وإن أنكروا ضروريات الدين، وسبوا الله رب العالمين، وسبوا رسوله الأمين المكين، وطبعوا وأشاعوا كلامهم المهين.."[3]

ثم ذكر تلك الفرق وبعض كتبها وأقوالها، بادئا بالقاديانية أتباع دجال

(1) العلامة الشيخ فضل الرسول القادرى البدايونى المتوفى سنة ١٢٨٩هـ- ١٨٧٣م.

(2) تم طبع الكتابين المذكورين بدار المقطم بالقاهرة فى مجلد واحد تحت اسم "تنقية الإيمان من عقائد مبتدعة الزمان"، القاهرة، ٢٠٠٨م.

(3) حسام الحرمين ص ٤٩ وما بعدها.

هذا الزمان غلام أحمد القاديانى، ثم الفرق الوهابية ومشايخها من علماء "ديوبند".*   *   *

قال الدكتور محمد عبد القادر نصار فى تحقيقه لواحد من كتب الشيخ الإمام: [1]

"ثم دهشت من أسلوب الشيخ فى الرد على مخالفيه، فقد تعودنا أن يكون للوهابية والمتأثرين بهم اليد الطولى فى الهجوم على التصوف ومفاهيمه، ثم نرى الصوفية يدافعون عن تصوفهم ومفاهيمه بنبرة هادئة، ولعل هذا كان يثير تساؤلاً فى ذهنى: لماذا يبقى الصوفية فى موقف الدفاع والمساحة التى كان يحتلها التصوف فى عقول الناس وقلوبهم قد انكمشت بما جر ذلك من بلاء على الأمة؟ فالصوفية المتحققون المتشرعون هم حملة مصابيح الهدى، ولكن الوقت وقت جهاد بالقول والدعوة، فينبغى أن يجد المخالف فيهم غلظة.

فوجدت هذه الشدة المحمودة عند الشيخ على شىء من التزيُّد لعل مرجعه إلى أن الشيخ ـ وقد وجد نفسه مدافعًا عن مجموعة من المفاهيم التى ترسخت عند أهل السنة تتعلق بعظمة ذات النبى وبالاحتفال بمولده

(1) رفع الريب عما نال المصطفى من علم الغيب المسمى الدولة المكية بالمادة الغيبية للإمام أحمد رضا خان البريلوى القادرى، تحقيق د.نصار، دارة الكرز، القاهرة، ٢٠٠٦،ص٤.

الشريف وبعلاقة الأحياء بالأولياء المنتقلين ـ رأى أن تهديد بعض المدارس الفكرية لرسوخ هذه المفاهيم يحتاج لمثل هذه الحدة، هذا مع أن القارئ ينبغى أن ينتبه إلى أن الفرقة التى يتوجه إليها الشيخ بالنقد على أنها فرقة وهابية هى فى الحقيقة فرقة الديوبندية، وهى تختلف عن الوهابية فى أمور رئيسة:

أولاً: هم فى العقيدة على مذهب أهل السنة والجماعة الماتريدية والأشاعرة، فليس فيهم من دواهى التجسيم الوهابية شىء، اللهم إلا فى عدم شدتهم مع الوهابية فى هذه المسائل.

ثانيًا: هم من جملة الصوفية ويأخذون من مشايخهم الطرق الأربعة المشهورة فى هذه البلاد وهى النقشبندية والجشتية والقادرية والسهروردية. والوهابية يعدون هذه الطرق من جملة البدع.

ثالثًا: هم أحناف فى الفروع ولهم بمذهب الإمام الأعظم تمسك واعتناء وجهود مشكورة فى إعلاء هذا المذهب العظيم. والوهابية المتأخرون خاصة لا مذهبية، وفيهم شنآن خاص لمذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه.

ويتفقون مع الوهابية فى مسألة الاستغاثة خاصة، وفى تبديع القيام للنبى صلى الله عليه وسلم فى قراءة المولد، كما

ينسب إليهم الإعراض عن الاحتفال بمولده صلى الله عليه وسلم فضلاً عن لينهم مع الوهابية."

ويحق لنا ـ بعد هذا الكلام ـ أن نسأل: هل اختلافهم مع الوهابية فى هذه الأمور الثلاث كان حقيقيًا أم ظاهريًا فقط؟ لو كان حقيقيًا لعصمهم من السقوط فى مهاوى تكفير المسلمين لأجل المسائل التى كفرهم بها الوهابية، ولرزقهم ـ على الأقل ـ الأدب فى الكلام عن الله تعالى، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم. لكنا عهدنا من الوهابية بمختلف فرقها المحافظة على مظهر الدين فحسب، ثم التسلط على جوهره وحقيقته بالمحو والإزالة.

❋ ❋ ❋

ولسوف يجىء ـ بعد قليل ـ الكلام عن هذه المدرسة "الديوبندية"، وقدرة المنتسبين إليها على التلوّن والجمع بين المتناقضات فى العقيدة، وإن الشيخ الإمام ـ الذى كان من أعلم أهل الزمان وأورعهم وأفقههم، والذى عاصرهم واطلع على أقوالهم وأفعالهم ـ ما كان ليعجز عن أن يفرق بين من هم على الجادّة ممن هم على غيرها، وما كان من المجازفين فى إطلاق الأحكام ونثر الاتهامات.

ولسوف يتأكد لنا هذا الأمر عندما نطّلع على ردود العلماء وتأييدهم للشيخ الإمام وهم أعيان علماء أهل السنة والجماعة آنذاك.

ولولا خشية الإطالة لأوردت ـ هنا ـ هذه التقاريظ وعددها أربعة

وثلاثـون تقريظًـا، ولكنـى سـأكتفى بعـدد منهـا (انظـر ملاحـق الكتـاب، الملحق رقم ٤)، ومـن شـاء الاطـلاع عليهـا كلهـا فهـى فى كتـاب "حـسام الحرمين" تشغل ثلاثا وسبعين صفحة من ص٦٧ إلى ص١٤٠.

أما أصحاب التقاريظ التى سنطالعها فى الملحق المذكور فهم:

١- الشيخ محمد سعيد بابصيل مفتى الشافعية بمكة المكرمة.
٢- شيخ الخطباء الشيخ أحمد أبو الخير مرداد.
٣- الشيخ صالح كمال مفتى الحنفية.
٤- العلامة السيد إسماعيل خليل محافظ مكتبة الحرم المكى.
٥- مفتى المالكية الشيخ عابد بن حسين.
٦- الشيخ أحمد المكى الإمدادى مدرس الحرم الشريف والمدرسة الأحمدية بمكة.
٧- الشيخ محمد تاج الدين إلياس مفتى السادة الحنفية بالمدينة المنورة.
٨- الشيخ عبد القادر توفيق الشلبى الطرابلسى الحنفى المدرس بالمسجد النبوى.
٩- الشيخ عثمان بن عبد السلام الداغستانى مفتى المدينة المنورة.
١٠- الشيخ السيد الشريف أحمد البرزنجى مفتى الشافعية.

أرجو يا صديقى الدكتور، ويا عزيـزى القـارئ الـذهاب الآن مباشرة إلى الملحق المذكور ومطالعة تقاريظ العلماء بغير استعجال، فإن طالب الحقيقة لابد لـه مـن المثابرة وبـذل الوقـت والجهـد بـسخاء لأن مـا يطلبـه

أفضل من الدنيا وما فيها، وسوف تلاحظان أن علماء الحرمين الشريفين كانوا على رأى ومعتقد الإمام أحمد رضا، بل إن عباراتهم فى تجريم علماء "ديوبند" كانت أشد من عباراته، وما كتبوا ما كتبوا إلا بعد الفحص والتأنى فإنهم يعلمون أنهم الأمناء على دين الله، وليس الأمر كما ادّعى الشيخ عبد الحى الحسنى صاحب "نزهة الخواطر" حين قال:

> "انصرف إلى (تكفير) علماء ديوبند كالإمام محمد قاسم النانوتوى والعلامة رشيد أحمد الكنكوهى والشيخ خليل أحمد السهارنفورى ومولانا أشرف على التهانوى ومن والاهم، ونسب إليهم عقائد هم منها برآء، وأخذ على ذلك توثيقات علماء الحرمين الذين لا يعرفون الحقيقة.."

وفى هذا القول إساءة لعلماء الحرمين الشريفين الذين كانوا يمثلون ـ فى ذلك الوقت ـ صفوة علماء أهل السنة فى الأمة الإسلامية كلها إذ يتهمهم بهذا بأنهم سمعوا كلام الإمام أحمد رضا فسارعوا إلى كتابة هذه التقاريظ والردود دون أن يتثبتوا أو يبذلوا الجهد ليتبينوا وجه الحق، كأنهم من العوام أو الجهال أو الفساق.

❋ ❋ ❋

فى الطبعات الثلاث التى صدرت من كتابى "من أقطاب الأمة" لم أشأ أن أتعرض بالتفصيل لهذا الأمر ـ كما تعرّضت له الآن ـ وذلك لأننى أردت أن أنزه صفحات الكتاب عن ذكر كلمات أولئك العلماء الشنيعة

واكتفيت بالتلميح فقط.

أما وقد شاع الباطل، وأصبح دعاته يتجرأون على أهل الحق ويتهمونهم بأبشع التهم، ويجدون من بين الناس - حتى من عقلائهم - من يصدقهم.. عندئذ يصبح السكوت أو التغاضي جريمة لا تغتفر.

نشرت مجلة "رابطة العالم الإسلامى" فى عددها الصادر فى فبراير سنة ١٩٨٥ مقالة قالت فيها: "منذ سنوات صدر قرار الحكومة الباكستانية باعتبار القاديانية طائفة خارجة عن الإسلام.. ونحن اليوم فى حاجة إلى قرار آخر فى مستوى قرار القاديانية الكافرة، قرار يدين البريلوية ويعتبرها ملة خارجة على الدين الإسلامى"[1]

وألّف من يسمى إحسان ظهير كتابًا عن "البريلوية" زعم فيه أن عقائد البريلوية مستقاه من الوثنية والمجوسية والهندوسية وديانات الشرك.[2]

وليست المصيبة فى أن يكتب أمثال هؤلاء مثل هذا، ولكنها فى تصديق بعض الناس "الطيبين" له، بل والمساعدة على زيادة نشره على النحو الذى رأينا، وهذا الأمر يجعلنا على يقين من أننا أدركنا هذا الزمن الذى ينقلب فيه المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والذى أخبر عنه رسولنا صلوات الله وسلامه عليه على لسان صاحبه وأمين سرِّه حذيفة بن اليمان حين قال: "والله ليركبن الباطل على الحق حتى لا يرون من

---

(1) نقلاً عن كتاب "حقيقة البريلوية المسمى مرآة النجدية" للشيخ إسماعيل الأزهرى،ص٦.

(2) نفس المصدر.

الحق إلا شيئا خفيفا"[١]

لذلك أعترف أننى لم أكن مصيبا عندما أحجمت عن ذكر نماذج من إفك المبطلين، وردود العلماء عليها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اذكروا الفاجر بما فيه، يحذره الناس"[٢]

وقد حدثت قضية مشابهة بين الإمام أحمد بن حنبل والحارث بن أسد المحاسبى الذى كان يتكلم فى علم الكلام، فهجره الإمام أحمد لذلك لأنه يحكى كلام المبتدعة قبل أن يردّ عليه، وفى ذلك نشر لكلامهم وأفكارهم القبيحة.

وعلّق حجة الإسلام الغزالى على هذا بقوله إن كلام الإمام أحمد صحيح لو أن كلامهم لم ينتشر بين الناس، أما وقد لاكته الألسنة وأصبح مشهورًا بين العوام، حينئذ لابد من الردّ عليه..

* * *

(1) كنز العمال ١١/ ٢٣٠.

(2) أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الغيبة، والحكيم الترمذى، والحاكم فى الكنى، والشيرازى فى الألقاب، وابن عدى، والطبرانى فى الكبير، والبيهقى، والخطيب عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده (نقلا عن حدوث الفتن للمصباحى ص١١٩).

محبة النبى صلى الله عليه وسلم

لازال الحديث متصلاً فى إطار الهدف الأول الذى اتخذه الشيخ الإمام غاية لحياته وأعماله، وآن لنا أن نقول إن لهذا الهدف وهو: الدفاع عن النبى صلى الله عليه وسلم شقين، شق جلالى وآخر جمالى.

وقد انتهينا ـ بحمد الله ـ من الحديث عن الشق الأول، وآن لنا أن نُرّطب أكبادنا بالحديث عن الشق الثانى: الجمالى، وهو مدحه للنبى صلى الله عليه وسلم بهذه الأمداح والقصائد البديعة التى رفعته إلى مصاف أعظم الشعراء الذين مدحوا أسعد الخلق وبهجة الوجود صلى الله عليه وسلم.

إنه الجانب الممتلئ بهجة وسرورا والذى يوازن مع الجانب الآخر الممتلئ بما يكدِّر ويُحزن، والحمد لله الذى من على المؤمنين بمحبة هذا النبى لتفرح قلوبهم وتتروح فى حرِّ الدنيا وقيظ الحياة.

❋ ❋ ❋

لم يكن الإمام أحمد رضا خان البريلوى محبا فقط، ولكنه جعل شعاره

وشغله الأكبر طوال حياته المباركة هو التعريف بعظمة النبى صلى الله عليه وسلم ودلالة المسلمين على طريق محبته، حتى إن هذه النية العالية سرت فى كتاباته وأشعاره كما تسرى الروح فى البدن، وأصبح يعرف فى شبه القارة الهندية بأنه "محب الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم".

كان إذا بدأ الكلام عن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحب أن ينهيه، حتى يروى أنه فى مدينة "بدايون" ألقى كلمة عن سورة الضحى، ولأن هذه السورة فيها ذكر لنبينا صلى الله عليه وسلم فقد استمرت كلمته لمدة ست ساعات على التوالى."[1]

وكان يحتفى الحفاوة البالغة بالاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من المناسبات، فيجلس فيها على ركبتيه متأدبًا مع مقام الحبيب صلى الله عليه وسلم.

وما كان حديثه يخلو قط من ذكر النبى صلى الله عليه وسلم، يقول دائمًا: "اذكروا الرسول فى كل كلام وحديث.. اذكروه صباحًا ومساءً".[2]

لقد كانت محبته للنبى صلى الله عليه وسلم كالنبع الصافى، لم تشبه شائبة، وظل هكذا إلى أن لقى ربه على خير حال.

"عندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة أوصى ورثته ومحبيه بقوله: ابتعدوا عن كل من تجدون منه أدنى إهانة لحضرة الرسول ومقامه صلى الله عليه وسلم أو أدنى استخفاف

---

(1) من أقطاب الأمة ص٧٣.

(2) الشيخ أحمد رضا خان البريلوى وشئ من حياته وأفكاره ص٦٢.

بشريعة الله ونظامه، مهما يكن ذلك الرجل معظما، حتى ولو كان شيخًا مكرمًا. انزعوه من قلوبكم مثل نزع الذباب من الحليب"[1]

❊ ❊ ❊

(1) من أقطاب الأمة ص ٣٣، نقلا عن كتاب الإمام أحمد رضا الحنفى البريلوى وشخصيته الموسوعية، كوثر النيازى، ترجمة ممتاز أحمد السديدى، أكاديمية رضا، لاهور، باكستان١٩٥٥.

ثانيا: التعريف بقدر النبى صلى الله عليه وسلم

كان علماء "ديوبند" يتهمون الشيخ الإمام بالغلو فى النبى صلى الله عليه وسلم، ولا تزال هذه حجة الوهابية لصرف المسلمين عن نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، فادّعوا أنه يسوى علم النبى صلى الله عليه وسلم بعلم الله جل وعلا.

ولما ذهب الشيخ لأداء الحج للمرة الثانية أراد بعض الوهابية من الهنود أن ينصبوا له شَرَكا، فأوحوا إلى بعض الناس أن يسألوا الشيخ الإمام عن علم النبى صلى الله عليه وسلم بالغيب، وهم على يقين أنهم سيوقعون به أمام علماء العرب، لأنه قد استقر فى قلوبهم المظلمة ما أملاه عليهم مشايخهم من أن سيد الكائنات صلى الله عليه وسلم كآحاد الناس لا يزيد عليهم فى شىء!!

فإذا بالشيخ الذى كان فى ظروف لا تسمح بالتأليف، خاصة أنه كان بعيدًا عن كتبه ومراجعه، يوفقه الله أعظم توفيق، فيجيب على سؤالهم إجابة فائقة شافية فى كتاب هو بحق من درر الكتب فى اللغة العربية، وبدلاً من أن يثير حفيظة علماء الحرمين - كما أراد شانئوه - إذا هم يجمعون على جلالته وعلو قدره فى العلم.

علم النبى صلى الله عليه وسلم

بيّن الشيخ الإمام فى هذا الكتاب الذى أسماه "الدولة المكية بالمادة

الغيبية"[1] أن علم الله تعالى ذاتى مختص به تعالى، ومن أثبت منه شيئا لغيره تعالى فقد اقترف كفرًا صريحًا، وشركًا بواحًا، أما العلوم الغيبية التى شرف الله تعالى وأكرم بها حبيبه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فحاصلة له من ربه تعالى وليست بذاتية، ومن أثبت منها شيئا للنبى فقد كفر.

قدّم الإمام لكتابه المبارك بهذه المقدمة الضافية التى أنقلها كما هى تبركًا بها، وطلبا للنيل مما امتلأت به من فوائد ودُرر:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلى على رسوله الكريم

الحمد لله علام الغيوب، غفار الذنوب، ستار العيوب، المظهر من ارتضى من رسول على السر المحجوب، وأفضل الصلاة وأكمل السلام على أرضى من ارتضى وأحب محبوب، سيد المطَّلعين على الغيوب، الذى علمه ربه تعليما وكان فضل الله عليه عظيما، فهو على كل غائب أمين، وما هو على الغيب بضنين، ولا هو بنعمة ربه بمجنون، مستور عنه ما كان أو يكون، فهو شاهد الملك والملكوت ومشاهد الجبار والجبروت، ما زاغ البصر وما طغى، أفتمارونه على ما يرى، نزل عليه القرآن تبيانا لكل شىء فأحاط بعلوم الأولين والآخرين، وبعلوم لا تنحصر بحد، وينحسر دونها العد، ولا يعلمها أحد من العالمين، فعلوم آدم،

---

(1) الدولة المكية بالمادة الغيبية للإمام أحمد رضا خان البريلوى، مركز أهل السنة، بركات رضا، كجرات، الهند، ٢٠٠٢م.

وعلوم العالم، وعلوم اللوح وعلوم القلم كلها قطرة من بحار علوم حبيبنا ﷺ، لأن علومه، وما يدريك ما علومه، عليه صلوات الله تعالى وتسليمه، هى أعظم رشحة، وأكبر غرفة من ذلك البحر غير المتناهى، أعنى العلم الأزلى، الإلهى فهو يستمد من ربه والخلق يستمدون منه، فما عندهم من العلوم إنما هى له وبه ومنه وعنه:

وكلهم من رسول الله ملتمس — غرفا من البحر أو رشفا من الديم

وواقفون لديه عند حدهم — من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وبارك وكرم، آمين.

وبعد!

فقد أتانى وأنا حلّ بالبلد الحرام، سؤال من بعض الهنود فى علم سيد الأنام، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، وقت العصر يوم الاثنين لخمس بقين من ذى الحجة، عام ألف وثلاثمائة وثلاث وعشرين من هجرة من أتم الحجة، وأوضح المحجة، عليه من الصلوات أكملها، ومن التسليمات أفضلها – وأظنه ناشئا من بعض الوهابية الذين قد سبوا الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم سبا، وأشاعوا بذلك فى الهند كتبا، وذلك لأن السُنّى إن احتاج هاهنا أن يسأل علماء، فهذا بلد الله

الأمين ممتلئ بحمد الله علما وعلماء، فمن كان عند البحار الزواخر، فما مضيه إلى نهر فى الآخر، على أن سادتنا علماء مكة المكرمة حفظهم الله تعالى قد شرحوا مسألة علمه صلى الله تعالى عليه وسلم، وسائر المسائل التى يخالف فيها الوهابى الأظلم، لا مرة ولا مرتين وقد كشفوا الرين، وأفادوا الزين، وأبادوا الشين، وأقاموا على الوهابية الحين.

وهذا العبد الضعيف، بفضل ربه القوى اللطيف، أبان عن جد فى خدمة السنة الزهراء، مقيم على الوهابية الطامة الكبرى، صنف كتبا تزيد على مائتين ودعا كبراءهم إلى المناظرة لا كرَّة ولا كرَّتين، فما أحار أحد منهم جوابا، فهذا ما يغيظهم، وقد علموا أنى بمكة منقطع عن كتبى، مشتغل بزيارة بيت ربى، مستعجل إلى بلد مولاى وحبيببى، صلى الله تعالى عليه وسلم فأثاروا هذا السؤال، طمعا منهم أن يمنعنى الاستعجال وشغل البال، وفقدان الكتاب، عن إبانة الجواب، فيكون فى ذلك عيد لهم ومسرة، ونوع عوض عما أصابهم من المعرة، أن سَكتُّ أيضا مرة كما أسْكتُّ كبراءهم ألف مرة، وجهلوا أن هذا الدين المتين مأمون، وكل من ينصره منصور ومصون، وإنما أمر الله إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فهذا ما فهمت من هذا السؤال، والعلم بالحق عند ذى الجلال، فالأحسن تقسيم الجواب إلى قسمين: قسم للسائل

المستفيد، وآخر على الصائل العنيد، ليصل كلاً ما يستأهله، ويجاوب كل بما هو أهله..

*　　*　　*

تأييـد علماء السنة:

اجتمع العلماء فى مجلس شريف مكة ليستمعوا إلى إجابة الشيخ المتهم فى عقيدته ودينه. تقول الرواية:

"وقرأه الشيخ صالح كمال مفتى مكة المكرمة بمجلس "الشريف" أمام حشد كبير من العلماء فترك البحث أثرًا عميقا فى قلوبهم، وقرظ عليه حوالى خمسين عالمًا من علماء الحرمين الشريفين، وخمسة عشر عالمًا من علماء الدول الإسلامية الأخرى"[1].

والطبعة التى عندى من كتاب "الدولة المكية" مُذيَّلة بعدد من تقريظات علماء أهل الزمان بلغت تسعة وخمسين تقريظًا، نعرض بعضها، وفى البعض ما يدل على الكل.

- **قال السيد إسماعيل بن خليل:**

"اعلم أن شيخنا المذكور الشيخ أحمد رضا خان لما فرغ من كتابته على السؤال المعروض عليه أمر شريف مكة الشيخ صالح كمال – مفتى مكة سابقًا – بأن يقرأه فى مجلسه على ملأ من الناس، وكانت الفئة الطاغية حينئذ جلوسًا، وعلماء الوهابية حضورا، فقرأ مولانا الشيخ صالح كمال الجواب، وما أودع فيها مولانا من جزيل الخطاب، وبين لقولهم الباطل ومذهبهم العاطل. فكُبتوا وبُهتوا خذلهم الله أين ما كانوا..

---

(1) الشيخ أحمد رضا خان البريلوى وشئ من حياته وأفكاره ص٧٧.

فحينئذ ظهر لأمير مكة أن مولانا أحمد رضا على الحق والصواب، وأخصامه -وهابية كانوا أو غيرهم- على الضلال والارتياب".

- **وقال الشيخ عبد الله سراج مفتى الحنفية بمكة المكرمة:**

".. ولقد أجاد مؤلفها وأفاد، وأوضح سنن الهداية والرشاد، فما كُلُّ مَن جَمَعَ ألّف، ولا كل من أكثر النقل والعَزْو صنّف، إنما تلك مواهب وهب بها المولى لمن شاء وجعله أولى، وكلٌ يَدَّعى وصلا بليلى، فمن تأمل ما فيها ونظر فى ظاهرها وخافيها تحقق عنده كذب زعم قول القائل بأن مؤلفها ذكر فيها مساواة علم نبينا ﷺ بعلم الله عز شأنه وتعاظم برهانه وغير ذلك من الكذوبات والأقاويل..

- **وقال الشيخ عبد الله بن حميد مفتى الحنابلة بمكة المشرفة:**

"فقد نظرت إلى هذه الرسالة التى قابلها بالقبول كل رئيس، فوجدت شموس براهينها قد جَلَتْ كل ظلمة، وأشرقت أنوار هداها على هذه الأمة.. فعند لثم ثغرها الباسم حمدت الله تعالى ألفًا وعشرًا، ولو كنت على وضوء لسجدت لله شكرًا على أن منّ الله علينا بهذا العالِم المحقِّق المدقِّق، لا زالت شجرة علمه نامية على ممر الأزمان، وثمرة عمله مقبولة لدى الملك الديان..".

- **وقال الشيخ محمد صالح مفتى الأحناف بمكة المكرمة:**

"فإن الرسالة المسماة بالدولة المكية بالمادة الغيبية خالية عما ادعاه على مؤلفها أهل الزور والبهتان من أنه ادعى فيها مساواة علم الرسول ﷺ لعلمه عز وجل إلى آخر ما ادعاه أهل الطغيان..

اللهم إنا نعوذ بك من المكر والاستدراج والتفوه فى حق كبار العلماء بما يوجب الطرد عن سبيل النجاة إلى سبيل الاعوجاج. اللهم زِد وبارك وأطل عمر هذا الأستاذ الكبير والعالم النحرير ليكون غُصّة وشوكة فى حلق كل مبتدع جهول لا يقدِّر قدر سيدنا ونبينا ومولانا محمد..".

- **وكتب الشيخ محمد جمال بن محمد الأمير مفتى المالكية:**

"أما بعد: فإنى قد اطلعت على هذه الرسالة المسماة بالدولة المكية بالمادة الغيبية فوجدتها قد وشحت بالآيات الوهبية.. كيف لا وهى للعالم العلامة المفرد، والسيد الحبر الأمجد شيخنا الشيخ أحمد رضا خان، ووجدتها خالية عما نسبه إليه أهل الزور والبهتان..".

- **وكتب العلامة الشيخ حمدان الوينسى القسنطينى الجزائرى:**

"أما بعد: فإنى لما اطلعت على الرسالة المسماة بالدولة المكية لأوحد جهابذة الهند العلامة النحرير الإمام الشهير المفسر المحدث الأصولى الفقيه اللغوى الجدلى المناظرى، الشيخ أحمد رضا خان الهندى دام مجده وعُلاه، وأمعنت

النظر فى تراكيبها ومبانيها، وتأملت جيدًا فى مفاهيمها ومعانيها وجدتها بحرًا عبابًا وعجبًا عجابًا، آخذة من التحقيق أعلاه، ومن التدقيق أقصاه، مؤيدة بالكتاب والسنة وإجماع هذه الأمة، وجلى القياس، مُدعمة بالحجج العقلية والبراهين اليقينية التى لا يبقى معها بعد التأمل العارى عن المكابرة ريب ولا التباس، دلت على تبحر مؤلفها المذكور أبقاه الله حجة للأنام وكهفا للنوازل العظام".

- **وكتب السيد علوى بافقيه الحسينى العلوى مفتى الشافعية ونقيب الأشراف بالمدينة النبوية المشرفة:**

"أما بعد: فقد مَنَّ الله علينا ذو الجلال أن جعل فى كل عصر رجالا أبطالاً أسهر عيونهم وشغل قلوبهم بالتدريس والتأليف والتصنيف مع الترصيف ورد شبهة أهل الهوى والضلال والافتراء، وكان من رؤسائهم وأكابر عظمائهم أفضل الفضلاء وأنبل النبلاء فخر السلف وقدوة الخلف الشيخ أحمد رضا خان البريلوى عامله الله بلطفه الخفى.

وقد اطلعت على الرسالة المسماة بالدولة المكية بالمادة الغيبية فقد ألف وأفاد، وصنف وأجاد، وإنها لجديرة بأن تكتب بالتبر بدل المداد والحبر، كيف لا وقد كشفت لنا عن معنى الحقائق وغامض الدقائق، وحلت معضل المشكلات بالحجج الدامغة والبراهين البينات، فجزاه الله تعالى خير

الجزاء".

- **وكتب العـــلامة الشيـــخ يوسف بن إسماعيـــل النبهـــانى تقريظًا نُشــر فى مجلة "البيان" الســورية جاء فيـــه:**

"أما بعد: فإنى لما تشرفت بالمجاورة فى أعتاب سيد المرسلين فى بلدته الطاهرة ومدينته المنورة فى هذا العام سنة ١٣٣١هجرية طلب منى بعض العلماء الأفاضل من أهل السنة والعترة الطاهرة أهل المدينة المنورة، أن أقرظ هذا الكتاب المسمى بالدولة المكية بالمادة الغيبية تأليف الإمام العلامة الشيخ أحمد رضا خان الهندى.

فلما أرسله إلَىَّ قرأته من أوله إلى آخره، فوجدته من أنفع الكتب الدينية وأصدقها لهجة وأقومها حجة ولا يصدر مثله إلا عن إمام كبير علامة نحرير فرضى الله عن مؤلفه وأرضاه وبلغه من كل خير مناه..

وأختـم كلامـى بـسؤال الحـق تعـالى بجـاه هـذا النبـى الكريم عليه أفضل الـصلاة والتـسليم أن يكثـر مـن أمثـال مؤلف هذا الكتاب الأئمة الأعلام حماة الإسلام المتصدين للـرد عـلى الكفـرة والمبتـدعين اللئـام فـإنهم مـن أفـضل المجاهـدين الـذابين عـن حـوزة الـدين والحمـد لله رب العالمين".

❊ ❊ ❊

ترجمة معانى القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾. وكان شيخنا من المعظمين لشعائر الله، وعندما قام بترجمة معانى القرآن الكريم امتازت ترجمته عن غيرها بما غلب عليها من تعظيم شعائر الله.

لم يكن زاده فى هذه الترجمة تمكنه من اللغة العربية، وغوصه فى علوم القرآن والحديث، وسعة معارفه بالعلوم والصناعات، وغير ذلك، فحسب، وإنما كان زاده الأكبر حب الله والرسول، وتعظيمهما إلى أبعد مدى، فتفتحت أمامه المغاليق، واستنارت المشاهد، وتكشفت المعانى، فكانت ترجمته أفضل مما سواها، وصفها العالم السلفى الشيخ سعيد بن عبد العزيز يوسف زئى بقوله:

"إنها أول ترجمة لمعانى القرآن الكريم روعى فيها علو حضرته تعالى وجلالته وعظمته ومجده وكبرياؤه عند ترجمة معانى الآيات المتعلقة بذاته تعالى، ولا توجد هذه المزية فى غيرها من التراجم القرآنية، سواء كانت من علماء أهل الحديث أو من أصحاب مدرسة فكرية أخرى. كما راعى الإمام أحمد رضا فى ترجمته لمعانى آيات تتعلق بسيد الأولين

والآخرين، حبيب رب العالمين، إمام الأنبياء، شفيع يوم الجزاء محمد المصطفى -صلى الله تعالى عليه وآله وسلم- راعى فى الترجمة مكانته السامية ومنزلته الرفيعة، ولم يساير فى هذا الصدد غيره من المترجمين الذين أتوا بترجمة لمعانى هذه الآيات من الناحية اللغوية والحرفية فحسب، وهذه فضيلة تخلو منها التراجم الأخرى تماما.."[1].

فبينما ترجم كبار علماء الهند قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ﴾ فى سورة الضحى بأشياء مثل:

- "ووجدناك تائها فهديناك"
- "ووجدناك غافلاً عن الطريق فهديناك الطريق"
- "ووجدناك لا تعرف الطريق فأرشدناك"

ترجمها الشيخ الإمام الترجمة اللائقة بمقام الرسالة المحمدية فقال:

- "ووجدناك فانيا فى محبتنا وتائها فى وديانها فهديناك إلينا".

وهذه الترجمة من الإمام المحب العاشق أكثر ملائمة لروح القرآن الكريم الذى قال فى سورة النجم ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ التى تجزم بأن النبى ﷺ لم ينحرف عن سبيل الهداية ولم يضل قط.[2]

---

(1) من أقطاب الأمة فى القرن العشرين، الطبعة الثالثة ص ٢٩ — ٣٠.

(2) من أقطاب الأمة فى القرن العشرين، الطبعة الثالثة ص ٢٩ — ٣٠.

* * *

ثالثا: مدح النبى صلى الله عليه وسلم

ما أجمل هذا الوصف، وما أجلّه، وما أرفع شأنه. إنه المقام العالى

الذى لا يتسامى إليه إلا الخصوص الذين خلع الله جل جلاله عليهم من خلعة محبته لنبيه ومصطفاه، ومن خلعة مدحه إياه.

لم يمنعه اشتغاله بالعلم من أن يتسامى إلى هذا المقام، وأن يتربع على قمته مع رواده وأقطابه مثل حسان بن ثابت والبوصيرى والصرصرى والبرعى والنبهانى.. مدح النبى صلى الله عليه وسلم بكل لغة أتقنها؛ بالعربية والأردية والفارسية. وبطبيعة الحال لن نستشهد ـ فى هذا المقام ـ إلا بما نظم فى لغة العرب، وإن كنا نسأل الله أن يقيض لأشعاره الأردية والفارسية شاعرًا مُجيدًا ينقل إلى العربية رونق وبهاء وجمال مدحه لسيد السادات صلى الله عليه وسلم.[1]

على الوالى من الأعلى صلاة ... تفيض فتستفيض بها العبيد

على الوالى من العالى سلام ... يجود فيجتدى منه العبود

صلاة لا تحد ولا تعد ... ولا تفنى وإن فنيت أبود

سلام لا يمن ولا يمانى ... ولا يبلى متى بليت عهود

* * *

قال فرمان فتحبورى – من أساتذة الأدب الأردى:

"إن شبه القارة أنجبت أعاظم العلماء المتضلعين فى شتى العلوم، بيد أننا لا نقع فيهم على شاعر من الطراز

---

(1) انظر "من أقطاب الأمة فى القرن العشرين" ص٧٥.

الأول إلى كونه علاّمة فى العلوم الإسلامية. وقد وجدنا هذا فى أحمد رضا خان.. إنه من علماء الدين الحنيف، غير أنه شاعر المديح النبوى الشريف بخاصة.. إن ما نظم من شعر يمتدح به خير البرية - ﷺ - يقع موقعه العميق فى قلوب مسلمى الهند، وعلى ذلك إذا نظرنا فى مدائحه النبوية أيقنَّا أنه أعظم شاعر امتدح رسول الله عليه الصلاة والسلام..

أما خصائص مدائح أحمد رضا النبوية فمتسمة بالوضوح، فمعانيها فى ظاهر ألفاظها، وغرض الشاعر يدرك فى غير عسر ومشقة، وهذه ميزة جعلت شعره شعرا يتفهمه ويتذوقه المتلقون على تفاوت حظوظهم من التعليم، وحسبنا أن نشير إلى أن مدائحه تُنشد فى المحافل الدينية الخاصة، وندوات السيرة النبوية العامة، وإذا سمعها المسلمون استخفهم الطرب وبلغ مبلغه، ولا نكاد نعرف مسلمًا فى شبه القارة الهندية ليس فى محفوظه أشعار مما فاضت بها قريحة أحمد رضا خان فى مديح سيد الأنبياءρ".[1]

وللإمام قصيدة بالأردية فى مدح النبى ﷺ تسمى بالمنظومة السلامية

(1) المنظومة السلامية فى مدح خير البرية صلى الله عليه وسلم، ترجمة د.حازم محفوظ، شرحها وعلق عليها ونقلها إلى الشعر العربى د.حسين مجيب المصرى، نشر مركز أهل السنة بركات رضا، الهند، ٢٠٠١م، ص٥٠.

تُنشَد بتمامها، أو أجزاء منها فى المحافل الدينية وفى المساجد بعد صلاة الجمعة وهى تشتمل على مائة وسبعين بيتًا وكل بيت منها ينتهى بعبارة: "لاكهون سلام" أى مئات الآلاف من التسليمات، وهى مشهورة فى البلاد الهندية باسم "سلام رضا"[1] وتنشد – كما قال د. حسين مجيب المصرى – بكيفية ترقق القلوب وتثير فيها هزة الطرب إلى حد يجعل للنفوس خشوعًا، وللعيون دموعًا. وقال أيضا فى موضع آخر من مقدمته الضافية لترجمة المنظومة السلامية:

> "ومن مستطرف ما يُعرف فى شبه القارة الباكستانية الهندية أن الاحتفال بالمولد النبوى الشريف يبدأ ويُختتم بإنشاد أبيات من "السلامية" كما أن النساء – بمناسبة المولد النبوى، وبمناسبة عيد الفطر وعيد الأضحى – يجتمعن فى بيت إحداهن ليشنفن الأسماع بإنشاد من تنشد السلامية بصوت جميل، وذلك فى كل ما وسعت المدن والقرى من أحياء".[2]

وقد أخبرنى صديق من الهند أن المؤذنين -فى بعض المساجد- يترنمون بأبيات منها قبل أذان الصبح فى مكبرات الصوت.

❋ ❋ ❋

وله قصائد أخرى كثيرة جعلته يتبوء تلك المكانة العالية بين المادحين.

---

(1) الإمام أحمد رضا الحنفى البريلوى وشخصيته الموسوعية ص٢٥.

(2) المنظومة السلامية فى مدح خير البرية صلى الله عليه وسلم، ص٦٢.

قال د. حسين مجيب المصرى:

"لأحمد رضا ديوان كبير فى الأردية هو:

"حدائق بخشش" أى حدائق الغفران، يتألف من ثلاثة أجزاء.. وأول ما يلفتنا إلى هذا الديوان أن معظم ما انطوى عليه فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته وصحابته والأولياء رضوان الله عليهم".

"وأهل العلم فى شبه القارة يجعلون لهذا الديوان منزلة لا تسامى، ويعدونه بحق أفضل ما قيل فى مدح الرسول ρ، وقد توفر كثير منهم على دراسته وشرحه وتفسيره (حتى أن أحد هذه الشروح يقع فى خمسة وعشرين جزءا كبيرا)".[1]

❊ ❊ ❊

إن الإمام أحمد رضا خان لم يقرض الشعر تنفيسا عن مكنون قلبه فحسب، ولكن بالمقام الأول – حتى تتغنى به جماهير المسلمين فتتأكذ محبة الله والرسول فى القلوب، وهو الأمر الذى وفقه الله إليه أعظم توفيق كما رأينا، استمع إلى هذه الأبيات من نظمه فى العربية؛ كم هى سهلة وبسيطة، سماعًا وحفظًا وإنشادًا:

وصلاة ربى دائما وعلى ... خير البرية سيد الأكوان

---

(1) المنظومة السلامية فى مدح خير البرية صلى الله عليه وسلم، ص٢٨.

صلى المجيد على الرسول وآله ومُحبه ومطيعه بـحنـان

صلى عليك الله ياملك الورى ما غرد القمرى فى الأفنان

صلى عليك الله يا فرد العلى ما أطرب الورقاء بالألحـان

كان – رضى الله عنه – يقول: "تعلمت المديح النبوى من القرآن الكريم" .. [1]

من تأمل فى هذه العبارة تكشفت له بعض معالم هذا المقام الرفيع – مقام المديح – الذى لا يشرِّف الله به إلا من كان أهلاً له.

عبر الشيخ عن ذلك بقوله: "مدح النبى ﷺ كالمشى على حد السيف، لو بالغت زاحمت الألوهية، ولو قصّرت ارتكبت النقيصة". [2]

إن المحب لا يروى عطشه شىء، ولا يكفيه ما يبث أشعاره من لواعج الشوق ولو ملأت ما بين الخافقين، بل هو دائما فى البحث عن مزيد، والشيخ الإمام المحب الموله يطرب لكل مديح، ويفرح لكل نبضة حب، فلما سمع بيتين للإمام الصرصرى الشهيد فى وجوب القيام – محبة وتعظيمًا – عند ذكر مولد المصطفى ﷺ طرب لهما وراح يرشف رحيقهما رشفًا فعمل لهما تخميسا بديعا، فهاك بيتا الصرصرى:

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب على فضة من خط أحسن من كَتَبْ

---

[1] الإمام أحمد رضا خان الحنفى البريلوى وشخصيته الموسوعية ص٢٤.

(2) نفس المصدر.

وأن ينهض الأشـــراف عند سماعـه　　قياما صفـوفا أو جثيا على الـرُّكَبْ

وهاك تخميس الإمام لهما:

سواد عيـون العين سنـــا ذهـبْ　　ولوح نـحـور الحور لاح كمـا يجبْ

فإن يـمل جبريل لقـال أولو الأدبْ　　قليل لمدح المصطفى الخط بالذهبْ

على فضة من خط أحسن من كتب

يقـوم بـحــق المدح قـوم فلاتِـهِ　　توله وقـم بالوجـد قومـة والِـــهِ

فحُقّ خضوع الوجه رغما لكارِهِ　　وأن ينهض الأشراف عند سمـاعِهِ

قياما صفـوفا أو جثيا على الركـب

❋　　❋　　❋

الحمـد للمتــوحـــدِ　　بـجـــلاله المتـفـــردِ

وصـــلاة مـولانـا على　　خـيـر الأنــام محمـــدِ

والآل أمطــار النـــدى　　والصحب سُحب عوائدِ

لاهُمَّ قد هجم العـدى　　من كـل شـــأوٍ أبعـدِ

لكن عبدك آمن … إذ من دعاك يؤيَّدِ

يا رب يا رباه يا … كنز الفقير الفاقدِ

بك ألتجى بك أدفع … فى نحر كل مُهدِّدِ

أنت القوى فقونى … أنت القدير فأيِّدِ

فإلى العظيم توسلى … بكتابه وبأحمدِ

وأدم صلاتك والسَّلا … م على الحبيب الأجودِ

واجعل بها أحمد رضا … عبدًا بحرز السيدِ[1]

❊ ❊ ❊

(1) نقلاً عن "من أقطاب الأمة فى القرن العشرين".

الهدف الثانى:

دفع سائر البدع

لخص الشيخ محمد أحمد المصباحى - صاحب "حدوث الفتن" - طبيعة الشيخ النقية الصافية التى لم تلوثها أطماع الدنيا ولا أهواء النفس فقال:

"ما كان يبيح المداهنة فى الدين، والمسالمة مع المبطلين،

إلا أن يرتدعوا عن الأباطيل ويرجعوا إلى الحق المبين"

وقال: "رد على النصارى، والهنادك، والرافضة، والقاديانية، والوهابية، والديوبندية، والندوية، والنياشرة[1] وغيرها، وكلما ظهرت بدعة رد عليها حتى قال العلماء، إن كثيرا من المبطلين كان يمتنع من إعلان بدعته زمنا طويلا مخافة من قلم الإمام أحمد رضا، وكذا كان شديد الإنكار على كل حرام ومنكر وسوء يظهر فى المجتمع الإسلامى، وتصانيفه تزخر وتتدفق بالرد على البدع والمنكرات التى راجت فى عصره، أو ظهرت قبل زمانه.

والمبتدعة لما لم يتمكنوا من الرد عليه بحجة ودليل لجأوا إلى البهت والافتراء فقالوا: إنه يسوى الرسول بالرب الجليل، ويبيح السجود للصالحين أو لقبورهم، ويتصدى للرد على كل حركة إصلاحية، وأسموا أهل السنة: "البريلوية" لينخدع من لا يعرف حقيقة الأحوال، والظروف، ويظن أن هذه فرقة جديدة. والحق أن الإمام أحمد رضا خان لم يعد عما مضى عليه الصحابة والتابعون، ومن بعدهم من أئمة الدين قيد شبر، ولم يخرج عن الدين الحنيف والمذهب الحنفى قدر شعير، لكن المبطلين يلوذون

---

(1) هم الذين يرجعون كل شئ إلى الطبيعة (نيتشر باللغة الانجليزية) وهم ينكرون الملائكة والجن والجنة والنار والنبوة والمعجزة إلخ.. ومذهبهم يوافق مذهب الدهرية، وداعيتها فى الهند هو سير سيد أحمد خان (راجع حدوث الفتن ص٦١).

بالإفك والاختلاق، ومصنفات الإمام أحمد رضا أكبر شاهد على كذب دعاياتهم ومن راجعها وقف على نزاهته من جميع الافتراءات وحظى بكثير من إفادات، وإفاضات، وبحوث رائعات، وعلوم رائقات.

وقد أثنى عليه علماء عصره من الحرمين الشريفين، وأخذوا منه أسانيد الأحاديث،وقد جمع البروفيسور مسعود أحمد كثيرا من كلماتهم فى كتابه "الفاضل البريلوى كما يراه علماء الحجاز".[1]

❋ ❋ ❋

القاديانية

"القاديانية" أنشأها مدعى النبوة الكذاب الميرزا غلام أحمد القاديانى، الذى أبطل فريضة الجهاد، ومالأ الانجليز وأحبهم، وأعلن أن الخضوع

(1) حدوث الفتن ص١٩٥.

لهم من الإيمان، وأن حكومتهم ظل الله فى الأرض، وطاعتهم فريضة، وملأ كتبه بالثناء عليهم والافتخار بأنه ـ وأباه من قبله ـ من أصدقائهم الأوفياء.

عرّف به الإمام أحمد رضا خان بقوله:

"دجال حدث فى هذا الزمان، فادعى أولا مماثلة المسيح، وقد صدق والله فإنه مثل المسيح الدجال الكذاب، ثم ترقى به الحال، فادعى الوحى، وقد صدق والله...! لقوله تعالى فى شأن الشياطين: ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام:١١٢] أمّا نسبة الإيحاء إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وجعله كتابه "البراهين الغلامية" كلام الله ـ عز وجل ـ فذلك أيضًا مما أوحى إليه إبليس: أن خُذ منّى وانسب إلى إله العالمين، ثم صرّح بادّعاء النبوة والرسالة وقال: "هو الله الذى أرسل رسوله فى قاديان"، وزعم أنّ مما نزّل الله تعالى عليه: "إنا أنزلناه بالقاديان وبالحق نزل"، وزعم أنه هو أحمد الذى بشر به ابن البتول، وهو المراد من قوله تعالى عنه: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:٦] وزعم أن الله تعالى قال له: إنك أنت مصداق هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ

بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة:٣٣] ثم أخذ يفضّل نفسه اللئيمة على كثير من الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وخصّ من بينهم كلمة الله وروح الله ورسول الله عيسى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ فقال: "اتركوا ذكر ابن مريم، فإن غلام أحمد أفضل منه"،(ولما سُئل:)إنك تدعى مماثلة عيسى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأين تلك الآيات الباهرة التى أتى بها عيسى، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق هيئة الطير من الطين فينفخ فيه، فيكون طيرا بإذن الله تعالى...؟ فأجاب بأن عيسى إنما كان يفعلها بمسمريزم اسم من الشعوذة بلسان أنكلترة، قال: ولولا أنّى أكره أمثال ذلك لأتيت بها، وإذ قد تعود الأنباء عن الغيوب الآتية كثيرًا ويظهر فيه كذبه كثيرًا بثيرًا داوى داءه هذا بأن ظهور الكذب فى إخبار الغيب لا ينافى النبوة، فقد ظهر ذلك فى إخبار أربعمائة من النبيين، وأكثر من كذبت أخباره عيسى، وجعل يصعد مصاعد الشقاوة حتى عدّ من ذلك واقعة الحديبية. فلعن الله من آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعن من آذى أحدًا من الأنبياء صلى الله تعالى على أنبيائه وبارك وسلم. وطفق يدّعى له (أى عيسى) ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثالب ومعايب، حتى تعدّى إلى أمّه

الصدّيقة البتول المصطفاة المطهرة المبرءة بشهادة الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، وصرّح أن مطاعن اليهود على عيسى وأمّه لا جواب عنها عندنا ولا نستطيع ردّها أصلاً، وجعل يلمز البتول المطهّرة من تلقاء نفسه فى عدة مواضع من رسائله الخبيثة بما يستثقل المسلم نقله وحكايته.. إلى غير ذلك من كفرياته الملعونة، أعاذ الله المسلمين من شره وشر الدجاجلة أجمعين"[1]

كادت هذه الفتنة تعصف بالإسلام فى الهند، لا لقيامها على شىء يُعتد به أو يحترمه العقل، ولكن لأن كل دعوى ـ مهما كانت متهالكة ـ تقوى وتشتد بسلطان الحكم والمال، وقد رأينا مصداق هذا فى الحركة الوهابية التى حظيت فى الهند أيضًا ـ مع غيرها من الحركات الهدامة ـ بتأييد الانجليز المطلق، ودعمهم فى ظل هيمنتهم الكاملة على كل شئون الهند.

ولكن الله سبحانه وتعالى الذى لا يكون فى ملكه إلا ما يريد، والذى قدّر كل شىء وقضاه، كما جعل هذه الفتن سببا فى هلاك من سقطوا فيها وتمرغوا فى نعيمها الزائف الزائل، جعلها ـ فى نفس الوقت ـ سببا فى نجاة أهل السعادة الذين عضّوا على دينهم بالنواجذ، وجعلها ـ أيضًا ـ سببا فى رفع أوليائه وأحبابه، الذين وقفوا فى وجهها، إلى مراتب الصديقين.

رضى الله عن شيخنا الإمام أحمد رضا خان الذى كان ـ بحق ـ سيفا من سيوف الله سلّه على البغاة الملحدين.

---

(1) حسام الحرمين ص٥٣-٥٦.

أصدر الإمام مجلة خاصة للرد على القاديانى باسم "قهر الديان على المرتد بقاديان" سنة ١٣٣٦هـ الموافق ١٩٠٥م، وقام بتأليف الكتب التالية:

- جزاء الله عدوه بإبانة ختم النبوة (١٣١٦هـ - ١٨٩٨م)
- السوء والعقاب على المسيح الكذاب (١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م)
- المبين ختم النبيين (١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م)
- الجراز الديانى على المرتد القاديانى (١٣٤٠هـ - ١٩٢١م)

أثنى الشاعر محمد ضياء الدين على الإمام، ووصف جهوده فى القضاء على فتنة القاديانى فى قصيدة قال فى بعض أبياتها ما ترجمته:

"أحمد رضا الذى فُقد نظيره، وانفرد فى عصره،

وبه انهارت الفتنة القاديانية"[1]

()

الشيعة:

---

(1) الشيخ أحمد رضا خان البريلوى وشئ من حياته وأفكاره، د.محمد مسعود أحمد، مؤسسة الشرف، لاهور، باكستان، الطبعة الثانية ٢٠٠٥م،ص٤١.

الشيعة -فى الأصل- هم أنصار سيدنا علىّ كرَم الله وجهه، ومن حاربوا معه أعداءه، ثم دخل فيهم -تحت ستار محبة أهل البيت- من أضمروا العداوة للإسلام وأهله، وسّعوا إلى الإفساد فى الدين ما استطاعوا، فأنشأوا -وراء ستار التشيع لأهل البيت- عقيدة جديدة تهدم الإسلام برمته.

قالوا إن على بن أبى طالب -كرم الله وجهه- هو الوصى الذى أوصى النبى ρ له بالإمامة من بعده، ولكن أبا بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم اغتصبوها منه بموافقة جميع الصحابة باستثناء عدد قليل منهم، فأصبحت كراهيتهم من صلب عقيدتهم بل وتكفيرهم.

ولما كان الصحابة -رضوان الله عليهم- هم حملة الدين لمن بعدهم فقد شككوا فيما قالوا، ولم يقبلوا كتب الصحاح كالبخارى ومسلم وغيرهما، وحتى القرآن، زعموا أن الصحابة حذفوا منه ما يدل بصريح القول على إمامة على، وبنوا حول هذه القضية كثيرا من العقائد الشاذة والآراء الساقطة حتى لم يعد لهم من الإسلام إلا اسمه، ووضعوا للقرآن تفاسير حسب أهوائهم تؤيد معتقداتهم، ورفضوا تفاسير غيرهم، ولم يأخذوا بالإجماع ولا بالقياس ضمن مصادر التشريع، وأسسوا عقيدتهم على نظرية الإمامة..

قال الدكتور مصطفى الشكعة فى كتابه القيم "إسلام بلا مذاهب":

"والإمامية يزيدون على أركان الإسلام ركنًا آخر، هو الاعتقاد بالإمامة، أى أنهم يعتقدون أن الإمامة منصب

إلهى كالنبوة، فكما أن الله يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، فإنه كذلك يختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه، وأن ينصبه إماما للناس من بعده للقيام بالوظائف التى كان على النبى أن يقوم بها.. وهم يرون أن الإمام معصوم –كالنبى– عن الخطأ، والإمام دون النبى وفوق البشر".

إلا أن الخمينى وهو من متأخرى أئمتهم يجعل الإمام فوق النبى أيضا، فى كتابه: "الحكومة الإسلامية ص٤٤" فيما نقله عنه الدكتور الشكعة – إذ قال:

"وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لايبلغه ملك مقرب ولا نبى مرسل".

لذلك وجدنا ادعاء الألوهية للأئمة عند بعض فرقهم مثل الإسماعيلية والدروز والعلويين..

❊ ❊ ❊

دخلت الشيعية القارة الهندية فى زمن السلطان المغولى "همايون" الذى توفى سنة ٩٦٤هـ، وكان فى حروب مع أعدائه انتهت بهزيمته، فالتجأ إلى إيران حيث أكرمه ملكها وأحسن ضيافته لمدة سبع سنوات تقريبا، رجع بعدها ليطلب ملكه وهو محاط بعدد من الأعوان والقواد الشيعة، وجيش صغير أمدّه به ملك إيران.

قال الدكتور عبد المنعم النمر فى "تاريخ الإسلام فى الهند":

"ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان لمكثه مدة كبيرة فى إيران، ومعاونة امبراطورها الشيعى له، وقوة نفوذ "بيرم خان" الشيعى فى بلاطه أثر كبير فى وفود كثير من الشيعة من إيران والعراق وغيرهما إلى الهند، والعمل فى حكومته واتساع نفوذهم فى البلاط المغولى، مما سنرى آثاره فى عهد "أكبر" ومن بعده من الملوك".

توفى "همايون" وخلفه ابنه "أكبر" الذى كان من أكبر الأباطرة الذين حكموا الهند، وظلت حوله بطانة أبيه الشيعية، ومع أنه بدأ حياته صالحًا، يحب العلماء والصالحين إلا أن الأمر انتهى به إلى اختراع دين جديد، وأنزل نفسه منزلة النبى، بل أكثر..

يصف الدكتور النمر كيف حدث هذا التحول فى حياته فيقول:

".. وإن الذى قام على إرشاده وتوجيهه، وكان له أكبر الأثر والفضل عليه هو "بيرم خان" الشيعى المتعصب، وكان لهذا أثره فيما بعد حين قرّب إليه كثيرًا من علماء الشيعة وجعلهم مستشارين له، مثل "فتح الله الشيرازى" و "أبى الفضل الناكورى" وأخيه "أبى الفيض" ووالدهما "مبارك"، بل كان كثير من العلماء يرمونهم بالإلحاد والزندقة"..

"تحول "أكبر عن هذه الروح المسالمة الخاضعة إلى إنسان آخر ملأه الكبر والغرور، ونفخ فيه من حوله من

الشياطين، فزينوا له أنه ظل الله فى أرضه، وأنه لذلك لا يصح أن يستمع لهؤلاء العلماء، ولا أن يقلدهم. بل الرأى مايراه هو، وهو مجتهد، بل إن مرتبته باعتباره إمامًا وخليفة فوق مرتبة المجتهدين، وهذه الفكرة قريبة جدًا من فكرة الشيعة عن الإمام واجتهاده، إن لم تكن هى، وكان هؤلاء الذين زينوا له ذلك هم المشايخ: "مبارك الناكورى" وولداه: "أبو الفيض" و "أبو الفضل" وغيرهم، وقد ذكرت بعض كتب التاريخ أن التحول فى عقيدة "أكبر" حدث بعد اتصالهم به ودخولهم فى حاشيته، وقد كانت نفس "أكبر" مستعدة لمثل هذا التغيير، ميّالة إلى التحرر من قيود الشريعة..".

وعن الدين الجديد الذى ابتدعه قال الدكتور النمر:

"وهى عبادة متحررة من مراسم الإسلام، ومقتبسة من الأديان كلها.. وسماه "الدين الإلهى"، ونادى بأن الدعوة الإسلامية قد مضى زمنها بمرور ألف سنة عليها، وأنها أصبحت لا تتفق مع زمانه.. وبدّل الكلمة الطيبة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" إلى "لا إله إلا الله، أكبر خليفة الله".

وكتبت له بطانة السوء بيانًا يقضى بأن "أكبر" ظل الله فى أرضه، وأن له أن يشرّع ما يشاء، حتى يوقع عليه العلماء، وكانت فتنة نجا منها من آثر النفى والتشريد وأنواع الشدائد على أن يبدِّل دينه الذى أكرمه الله به،

وسقط فيها البعض ممن آثروا الدنيا.

* * *

بموت "أكبر" زالت هذه الفتنة، ولكن النفوذ الشيعى فى البلاط ازداد عما كان عليه، إذ كان ولده وخليفته "جهانكير" متيمًا بزوجته الشيعية، حتى أسلمها كل شىء وجعل أباها رئيسًا للوزراء يفعل ما يشاء ويعين من يشاء، فكأن الإمبراطورية المغولية العظيمة فى الهند أصبحت فى قبضة الشيعة، فزاد توغلهم فى البلاد وتمكنهم من المناصب المهمة..

وكان لابد أن ينشب الصراع على أشده بين علماء أهل السنة وبين هذا الفكر الإلحادى الوافد على البلاد.

* * *

فى رسالته لنيل درجة الماجستير بعنوان "الإمام أحمد رضا خان وأثره فى الفقه الحنفى" قال الأستاذ مشتاق أحمد شاه:

"تصدّر المجدد للألف الثانى (الشيخ أحمد الفاروقى السَّرهندى) لآراء الشيعة الإمامية، وألف رسالة فى ردها، ثم جاء الشيخ الشاه ولى الله الدهلوى وألّف كتابا فى تفضيل الشيخين سمّاه "إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء"، وألف ابنه الأكبر الشاه عبد العزيز الدهلوى كتابًا فى الرد عليهم سماه بـ"التحفة فى الرد على الشيعة الاثنى عشرية".

* * *

أما الإمام أحمد رضا خان، الذى تكاثرت فى زمنه الفتن، وتعالت

وتجرأت وتكالبت على الدين فى ظل هيمنة أعداء الإسلام على مقدرات البلاد، فقد ردّ على الشيعة وفضح أفكارهم لا بكتاب أو اثنين أو ثلاثة، ولكن بأكثر من عشرين كتابًا، وسيجىء بيان ذلك بعد قليل إن شاء الله.

فى التاسع من شهر الله المحرم سنة ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦ م زار مؤلف كتاب "تاريخ الإسلام فى الهند" فضيلة الدكتور عبد المنعم النمر مقرًا للشيعة فى "لكنو" وقال:

"فدهشت لفخامته وضخامته.. رأيتهم يستعدون فيه للاحتفال بيوم عاشوراء الموافق ذكرى استشهاد الحسين فى كربلاء. ولهذه الذكرى فى الهند أهمية بالغة بحيث يشترك فيها السنيون والشيعيون على تفاوتٍ بينهم فى هذه المشاركة، فالشيعة قد اعتادوا أن يصنعوا من الخشب ما يشبه "النعش" أو قبة الحسين، ويسيرون خلفها فى بكاء وحزن، ويسمونها "التعزية" ويضربون خدودهم وصدورهم بالحديد والحجارة حتى تسيل دماؤهم، ويسقطون صرعى وتحملهم عربات الإسعاف لعلاجهم، وذلك حزنا على ما جرى للحسين رضى الله عنه، وتتجمع هذه التعزيات، وفيها يكون الاحتفال الرسمى، حيث يجلس زعماء الشيعة يستقبلون المعزين، كأن جثة الحسين بجانبهم، وكأنه قُتل منذ لحظات.

والحكومة الهندية تعطل الأعمال الرسمية فى جميع أنحاء

الدولة ثلاثة أيام بهذه المناسبة، مع أنها تعطل أعمالها يومًا واحدًا بمناسبة عيد الفطر ويومين فى عيد الأضحى. وهذا التقليد من أيام الانجليز الذين كانوا يجاملون الحكام السابقين من الشيعيين وجميع الشيعة فى الهند، وكل القرى والمدن هناك تجد فيها هذه الظاهرة يفعلها الشيعة، ويجاريهم بعض العوام من السنيين..".

* * *

سُئل الإمام أحمد رضا عن تعزية الحسين رضى الله عنه، فأجاب بأن ذلك الفعل حرام، وألف فى ذلك كتابًا ملأه بالبراهين الساطعة على حُرمة هذا الاحتفال وسماه "أعالى الإفادة فى تعزية الهند وبيان الشهادة".

ولم يترك جانبا من جوانب هذه الفتنة الشيعية إلا تعرض له وبحثه وبين بطلانه بالأدلة الدامغة، وبما عُرف عنه من تدقيق وتحقيق وعلم غزير.

وقد ذكر الأستاذ مشتاق أحمد تسعة عشر مؤلفًا للإمام وقال إنها جزء من كل ساقها على سبيل المثال، لا الحصر، وقد وجدت عند غيره – أيضا– كتابًا وضعته فى آخر القائمة برقم ٢٠، وها هى ذى:

١. ردّ الرافضة (١٣٢٠هـ).
٢. أعالى الإفادة فى تعزية الهند وبيان الشهادة (١٣٢١هـ).
٣. غاية التحقيق فى إمامة على والصديق.
٤. الكلام البهى فى تشبيه الصديق بالنبى (١٢٩٧هـ).
٥. اعتقاد الأحباب فى المصطفى والآل والأصحاب.

٦. وجه المشوق بخلوة أسماء الصديق والفاروق (١٢٩٧هـ).

٧. جمع القرآن وبم عَزوه لعثمان (١٣٢٢هـ).

٨. مطلع القمرين فى إبانة سبقة العمرين (١٢٩٧هـ).

٩. البشرى العاجلة فى تحف آجله (١٣٠٠هـ).

١٠. الزلال الأنقى عن بحر سبقة الأتقى.

١١. أعلام الصحابة الموافقين للأمير معاوية وأم المؤمنين (١٣١٢هـ).

١٢. عرش الإعزاز والإكرام لأول ملوك الإسلام (١٣١٢هـ).

١٣. ذب الأهواء الواهية فى باب الأمير معاوية (١٣١٢هـ).

١٤. الأحاديث الراوية لمدح الأمير معاوية (١٣١٣هـ).

١٥. الجرح الوالج فى بطن الخوارج (١٣٠٥هـ).

١٦. الصمصام الحيدرى على حُمق العيّار المفترى (١٣٠٤هـ).

١٧. الرائحة العنبرية عن الجمرة الحيدرية (١٣٠٥هـ).

١٨. لمعة الشمعة لهدى شيعة الشنعة (١٣١٢هـ).

١٩. شرح المطالب فى مبحث أبى طالب (١٣١٦هـ).

٢٠. الأدلة الطاعنة فى أذان الملاعنة.

* * *

"ندوة العلماء"

أما "ندوة العلماء" فقد أسسها الشيخ شبلى النعمانى وآخرون معه، وكان الشيخ شبلى من أصحاب السير سيد أحمد خان الذى سبق والتقينا به قبل صفحات ورأينا حفاوة الإنجليز به وتشجيعهم له.

أسس سير سيد أحمد خان مدرسة "عليكره" التى اعتنت بالعلوم الغربية عناية كاملة وأهملت العلوم الإسلامية، فأراد الشيخ شبلى النعمانى أن يؤسس مدرسة جديدة تقوم على العناية بالعلوم الشرعية على منهج جديد غير ما درج عليه أهل السنة والجماعة منذ نشأة الإسلام، فكانت "ندوة العلماء" التى قامت على أساس أنها تقبل فى صفوفها أصحاب كل فكر، وهو الأمر الذى يتناقض مع سمو ونقاء عقيدة الإسلام. وراح المسئولون عن "الندوة" يُقبلون على الإنجليز للحصول على الدعم المالى الذى بذله الإنجليز لرضائهم عن منهج هذه المدرسة أيضا.

قال مؤلف "حدوث الفتن وجهاد أعيان السنن":

> "فشت الفتن فى عصره، وشاعت الوهابية وانبعثت فتنة الندوة "ندوة العلماء" التى كان هدفها أن كل من تفوه بالشهادتين فهو من أهل القبلة يجب علينا إكرامه وإعظامه، وجمعه تحت لواء الندوة، ولو كان رافضيا غاليًا، أو قاديانيا طاغيا، أو نيشريا ملحدا (أى من الطبيعيين) أو منكرا جليا لضروريات الإسلام، فصمد الشيخ تجاه هذه الفتنة وأصدر فى الرد عليها كتبا ورسائل..".

انتقد الإمام أحمد رضا خان هذا الاتجاه فى تشويه عقيدة الإسلام فقال:

"إن هؤلاء المخذولين زعموا أن الوداد مع أهل البدع والفساد، أهم فريضة على العباد، حتى لو تركه أحد لم يقبل منه صوم ولا صلاة، بل لا إيمان، فلا دخول جنان، وزعموا أن الرد على المبتدعة كقتل الرجل نفسه، وأنه لا تنبغى المساءة فى شىء من الأمور، وعد محمد على الكانفورى (من مؤسسى ندوة العلماء) كل رءوس الضلالة من الروافض والوهابية والنيشرية وغيرهم من كبراء دينه، وحرّم الرد عليهم، وجعل خلافهم كالخلاف بين الأئمة الأربعة، وعتوا عتوا كبيرا، فصرحوا فى كتبهم أن الكل على حق، وأن الله تعالى راض عنهم جميعا، وينظر إليهم بنظرٍ سواء، إلى غير ذلك من الكفريات والضلالات.

وقد انتدب للرد عليهم علماء السنة من الأقطار الهندية. وللعبد الضعيف غفر الله تعالى له كتب فى رد هؤلاء المخذولين، من أجلها فتوى قد ارتضاها علماء البلد الحرام، وقرظوا عليها بتقريظات عظام، ولله الحمد على جلائل الإنعام سميتها "فتاوى الحرمين برجف ندوة المين" (١٣١٧هـ) فمن أحب الاطلاع على ضلالات هؤلاء فليطالعها"[1].

---

(1) تنقية الإيمان من عقائد مبتدعة الزمان المعروف باسم "المستند المعتمد بناء نجاة الأبد"، للشيخ أحمد رضا خان البريلوى، دار المقطم، القاهرة،٢٠٠٨م،ص٢٤٩.

وإذا قرأت دفاع أهل الندوة عن أنفسهم ضد مهاجمة الإمام لهم أدركت أنه كان محقًا فيما ذهب إليه.. من أمثلة ذلك ما ذكره الشيخ عبد الحى الحسنى صاحب "نزهة الخواطر" عن شيخنا الإمام وموقفه من "الندوة" حيث قال:

"(كان) شديد المعارضة، دائم التعقب لكل حركة إصلاحية، انعقدت حفلة "مدرسة فيض عام" سنة ١٣١١هـ (١٨٩٣م) فى "كانفور"، وحضرها أكثر العلماء النابهين، وهى الحفلة التى تأسست فيها "ندوة العلماء"، ومن أكبر أغراضها توحيد كلمة المسلمين وإصلاح ذات البين بين علماء الطوائف وإصلاح التعليم الدينى، وحضرها المفتى أحمد رضا (خان البريلوى)، وخرج منها وقد قرر محاربة هذه الجمعية، فأصدر صحيفة أسماها التحفة الحنيفية لمعارضة ندوة العلماء، وألف نحو مائة رسالة وكتاب فى الرد عليها، وأخذ فتاوى العلماء فى أنحاء الهند وتوقيعاتهم.. وجَمعها فى كتاب سمّاه "إلجام ألسنة أهل الفتنة" وأخذ على ذلك توثيق علماء الحرمين، ونشره فى مجموعة سماها "فتاوى الحرمين برجف ندوة المين" فى سنة سبع عشرة وثلاثمائة وألف".

فى الحفل الذى أقيم بمناسبة وضع حجر الأساس لـ"ندوة العلماء" سنة ١٩٠٨، دُعى قائد الجيش الانجليزى راعيا لهذه المناسبة، وقال مؤسس المدرسة شبلى النعمانى بهذه المناسبة:

"إنما كانت هذه أول مرة رؤيت فيها الطرابيش والعمائم متحاذية، وكانت أول فرصة انحنى فيها العلماء بين يدى حاكم مسيحى مع التشكر والأدب، وكانت هذه أول مرة يوضع فيها حجر الأساس لمدرسة دينية على يد رجل هو على غير ملتنا، وبالجملة كانت هذه أول مرة اجتمع فيها تحت سقف مذهبى النصارى والمسلمون والشيعى والسنى والحنفى والوهابى والماجن والزاهد والصوفى والواعظ ولابس الخرقة والأمراء كلهم أجمعون"[1].

هذا الافتخار بجمع مختلف العقائد والملل والتأليف بينها دليل على فساد الأساس الذى قامت عليه هذه المدرسة، لأن هذا القبول بالعقائد الشاذة يكون على حساب عقيدة الإسلام النقية التى تركنا عليها رسولنا صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣]

إن الدعوة إلى التأليف بين طوائف المسلمين التى ينخدع بها كثير من الناس دعوة فى ظاهرها الرحمة وفى باطنها العذاب، لأن الله لم يجمع قط بين أهل الحق وأهل الباطل فى مقام واحد، ما فرّق بينهم فى الآخرة إلا وقد فرق بينهم فى الدنيا.

---

(1)حقيقة البريلوية للشيخ إسماعيل الأزهرى، نقلا عن "شبلى نامة" ص١٤٠.

لو أنها دعوى محققة لكان أحق الناس بها سيد الخلق صلى الله تعالى عليه وسلم الذى ما ترك خيرًا قط إلا دلّ عليه، ولا شرًا قط إلا حذّر منه، فوصف أقواما من المسلمين بأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وحذّر من البدع والأهواء أشد التحذير، وأمر علماء أمته بإبانة الحق ودفع الباطل، وإلا باءوا بغضب من الله.

ترى الرجل –وقد يكون عالمًا– يقبل الشيعة أو الوهابية ويدافع عن إفكهم، ويرى إمكانية –بل ضرورة– التقارب معهم قائلا: كفى الأمة تفرقًا وتشرذمًا. لقد آن أن تجتمع الأمة بجميع طوائفها حتى تواجه أعداءها. يتوهمون أنهم ينصرون الله بأعدادهم.

إن أهل الحق لو تمسكوا بشريعة ربهم، وسنة نبيهم أُيدوا ولو كانوا ثلاثة، وإن ترخصوا وارتابوا خذلوا ولو كانوا ملايين.

وللأسف الشديد إن هذه الدعوة لا ينخدع بها إلا أهل السنة الذين عليهم أن يقدموا كل وقت المزيد من التنازلات فى الدين، أما أهل البدع فهم على ضلالهم راسخون، لا يتزحزحون عنه قيد أنملة.. وهم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم ملّةٌ واحدة ضد أهل الحق.

عثرت ـ بالصدفة ـ على كتاب عنوانه "مراكز المسلمين التعليمية والثقافية والدينية فى الهند" لمؤلفه عبد الحليم الندوى ـ نسبة إلى "ندوة العلماء" ـ فوجدته يذكر المدارس والجامعات الوهابية فقط دون مدارس وجامعات أهل السنة على كثرتها ولا يعترف بها أصلا، مع أنه يذكر

جامعات الشيعة، وحتى طائفة البهرة[1] يذكر جامعاتهم، ويذكر شيخهم المدعو "الداعى المطلق" بعبارات التوقير والتعظيم فيقول: "وكان يتولى زعامة الفرقة منذ عهد قريب، الداعى المطلق الواحد والخمسون المغفور له الدكتور سيدنا طاهر سيف الدين رحمة الله عليه. وكان رحمه الله إلى جانب ورعه وتقواه، من أكبر علماء الهند" ثم يقول: "فأقام سيدنا رحمه الله عدة معاهد تعليمية لا تزال تنور بأشعتها العلمية منطقة غربى الهند وخاصة المدن والأرياف الواقعة بالقرب من بومبى مقر المؤسسة ومركز الإشعاع الروحى للمغفور له. وفيما يلى نبذة يسيرة عن بعض المعاهد وعن الدور الهام الذى لعبته المؤسسة تحت إشراف وإرشاد المغفور له سيدنا طاهر سيف الدين"[2]

* * *

هذا الجمع بين المتناقضات فى العقيدة الدينية سمة رئيسية فى تلك المدارس الوهابية فى الهند بحيث تجد العالم المنتسب إليها يقول إنه

(1) البهرة احدى الفرق الشيعية الإسماعيلية، وهم فرقة باطنية يظهرون غير ما يبطنون، يتظاهرون بالإسلام ويصلون كما يصلى المسلمون، ولكنهم فى الباطن يصلون للإمام المستور، كما أنهم يذهبون إلى مكة للحج ولكنهم يعتقدون أن الكعبة رمز على الإمام المستور. يتخذون لأنفسهم أماكن خاصة للصلاة ولا يسمحون بإقامة الصلوات فى المساجد العامة. أما عن عقائدهم فهى فى مجموعها مأخوذة من عقائد الإسماعيلية الخارجة عن عقائد المسلمين. انظر مادة "البهرة" بالموسوعة الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر، القاهرة ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

(2) مراكز المسلمين التعليمية والثقافية والدينية فى الهند، عبد الحليم الندوى، طبع مطبعة نورى المحدودة، موراس ١٣الهند ص٦٨..

ماتريدى وصوفى ومع ذلك يعتقد ويردد عقائد الوهابية. وينفر من أهل السنة لأنهم على المحجة البيضاء التى تركهم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فبينما يعادون أهل السنة ولا يعترفون بهم، يفتحون صدورهم لكل مبتدع أو مارق من الدين.

اشتهر فى بلاد العرب ممن يمثلون هذا التيار الشيخ أبو الحسن الندوى وإنك لتعجب عندما تقرأ كتاباته عن رجال التصوف مثل الشيخ عبد القادر الجيلانى ومولانا جلال الدين الرومى والدهلوى والسرهندى وعن إمام أهل السنة الأشعرى تعجب أنه هو نفسه الذى ترجم للعربية كتاب رسالة التوحيد للشيخ إسماعيل الشهيد وقدم له وعلق عليه، ووصفه فى تقديمه له بقوله: "فإنه كتاب أصبح شعارًا وعلمًا للدعوة إلى التوحيد وبيان الحق الصريح، وقد نفع الله به خلائق فى شبه القارة الهندية لا يحصيهم إلا من أحصى رمل عالج وحصى البطحاء"[1]

* * *

"جماعة التبليغ" ومدرسة "ديوبند"

وجماعة التبليغ لم تخل -أيضًا- من هذه الآفة، لأن شيوخها نشأوا فى

---

(1) رسالة التوحيد ص١٠.

هذه المدارس المستحدثة، فالشيخ محمد إلياس مؤسس الجماعة تتلمذ على يد الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى، ومن بعده الشيخ خليل أحمد السهارنفورى(1)، وهذه الجماعة وليدة هذا الاتجاه وهذه المدرسة.

ولقد كنت لفترة طويلة أتعجب من وجود بعض المتناقضات فى عقائد هذه الجماعة، فهى وهابية الطابع فى غالب أمرها، ولكن تجد من بعض المنتسبين إليها نزوع إلى التصوف، وقد تجد من بينهم من يقول إنه أشعرى العقيدة، ومع ذلك لا تمنعه هذه العقيدة الأشعرية من مسايرة عقائد الوهابية ليلاً ونهارًا، ولا يجرؤ أحد فيها على إظهار مخالفته لعقائد الوهابية وإن أضمر فى قلبه غيرها.

أخبرنى من لست أتهم بكذب من جماعة التبليغ أنه سمع واحدًا من كبار مشايخ الجماعة فى مصر يقول على الملأ: من لا يؤمن بأن الله بذاته فى السماء على العرش لا يخرج معنا فى سبيل الله.

ولقد أتيح لى التنويه ببعض هذه الأمور عندما كتبت مقدمة لكتاب "الإصابة فى صحيح حياة الصحابة"(2)، وكان مما قلته فيها:

"هذه فرصة كنت أتمناها حتى أبث جماعة التبليغ بعض ملاحظاتى فإننى منذ تركتها سنة ١٩٩١، لم أنقطع

---

(1) الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوى، أبو الحسن الندوى، مكتبة الأختر، حضرت نظام الدين، دلهى الجديدة، الهند،١٩٩٢م،ص١١-١٣.

(2) الإصابة فى صحيح حياة الصحابة، محمد أبو العباس، مراجعة وتنقيح أحمد طه على الدين، دار المقطم القاهرة،٢٠٠٦م.

عنها، ولا يزال أمر جماعة التبليغ يشغلنى، ويمثل همًا من همومى.. فهذه الجماعة تنتظم ملايين من المسلمين الذين حسنت نياتهم فى أنهم يريدون إصلاح أنفسهم، وأن يجعلهم الله سببا فى صلاح الأمة كلها.. فى جميع بقاع الأرض يخرجون، وبجميع اللغات يتكلمون، وعبر كل الحدود يمشون وقد حملوا سببًا عظيمًا من أسباب القوة وهو - بعد الإسلام - أن كل واحد منهم يخرج بنفسه وماله، لا تمنعهم قلة الأموال من الخروج، فكلٌ يخرج على قدر ما هو متاح له من مال.. ثم هم أينما ذهبوا يأوون إلى المساجد، ويعيشون فى بساطة وبأقل كلفة، لا شأن لهم بالسياسة، ولا ينازعون أهلها، بل جل همهم الدعوة..

لو نظرنا إلى خريطة العالم وتخيلنا حركة الجماعات التبليغية، التى تتحرك فى أنحاء الدنيا يمينا ويسارا وشمالا وجنوبا، لبدت كأنها خلية نحل تعجّ بالحياة والحركة..

فهى جديرة - لهذه الأسباب وغيرها - أن تحدث تغييرًا فى العالم بأسره نحو الأحسن والأجمل والأعدل والأصوب.. المتمثل فى الإسلام إذا حيا فى قلوب المسلمين وتأدبوا بآدابه وتخلقوا بأخلاقه.

ولكن!!؟؟

* * *

هنا يجدر بى أن أسوق بعضًا من تجربتى مع الخروج لعل الله ينفع بها من شاء إنه على كل شئ قدير.

قبل أن أخرج مع جماعة التبليغ كنت أميل إلى التصوف، وأبحث عن الشيخ المربى، وأزور الأولياء وأصلى فى مساجدهم وأتوسل إلى الله بهم..

وكان خروجى فى سبيل الله ـ أيضا ـ من ضمن رحلة البحث عن إصلاح النفس وسلوك الطريق إلى الله تعالى. ثم حدثت لى تحولات لا أدرى متى ولا كيف حدثت.

فنحن غالبا لا نلتفت إلى التغيير الذى يجىء بطيئا متدرجا، كالناظر فى المرآة كل يوم لا يدرك أبدا ما يطرأ عليه من تغيير تأتى به الليالى والأيام.

المهم أن هذا التحول انتهى بى إلى أن صرت أنكر على من حولى بعض أشياء كنت لا أرى بها غضاضة من قبل وأسوق لذلك مثالين من أمثلة كثيرة..

١- كان والدى ـ رحمه الله ـ يحب أهل البيت ويداوم على زيارة أضرحتهم، فكان إذا طلب منى ـ مثلا ـ أن آخذه إلى سيدنا الحسين أو السيدة زينب أو السيدة نفيسة.. عليهم وعلى جميع أهل البيت من الله السلام، كنت أوصله وأرفض أن أطأ بقدمى باب المسجد، وأظل فى الخارج حتى يفرغ من زيارته، وأنا فى ذلك موقن أنى

على الحق وعلى السنة، وأن والدى على الباطل، مع أنه ـ رحمه الله ـ من كبار علماء الأزهر الشريف، وممن أفاض الله عليهم فى العلم وفى العمل[1].

٢- كان بالعجوزة ـ الحى الذى كنت أسكن فيه آنذاك ـ مسجد قديم يجتمع فيه الناس بين صلاة المغرب والعشاء ويقيمون حلقة للذكر، وكنا نصف ذلك بالبدعة، وكم أعملنا الفكر، وبذلنا الجهد من أجل "تطهير" ذلك المسجد من هذه "البدع"؟؟!!

أسأل الله العفو والمغفرة.

كم أتمنى اليوم لو أننى كنت وحدى على هذه الطريقة من سوء الظن بالمسلمين وإطلاق الأحكام جزافًا عليهم بالابتداع والضلال، واتهامهم فى أغلى ما يملكون وهو الإسلام.

ولكنى فى ذلك كنت مقلدًا، ومتأثرًا بالروح العام الذى أصبح يهيمن على جماعة التبليغ فى بلادنا..[2]

---

(1) هو خالد محمد خالد مؤلف كتاب "رجال حول الرسول" وغيره من الكتب.. انظر فى ترجمته مقدمة كتاب "قصتى مع التصوف" وأيضًا الفصل الخاص به فى كتاب "مدارس الحب مصانع الرجال" وكلاهما طبع دار المقطم بالقاهرة.

(2) كنت عند كتابة هذه الكلمة اعتقد أن التأثيرات الوهابية أصابت جماعة التبليغ فى بلاد العرب وحدها، وأن سكوت مشايخ الجماعة فى الهند على ذلك هو من باب المجاملة للعرب، وإن كان هذا لا يصح فى الدين بحال.

متى وكيف تسربت هذه العقائد الغريبة عن الإسلام إلى هذه الجماعة التى أراد أفرادها أن يتبتلوا لله.. ونجحوا ـ زمنا طويلا ـ فى أن يبعدوا أنفسهم عن كثير من الشبهات.

هذه دعوة، أتوجه بها إلى جماعة التبليغ ـ وبعضهم إلى الآن أحباب لى وأصدقاء ـ إلى إعادة الفكر والنظر فى غير عصبية ولا هوى، فإن جماعة التبليغ ـ مثلها مثل كثير من أوجه حياة المسلمين اليوم ـ فى حاجة إلى من ينبه إلى أخطائها حتى يمكن تصحيح مسارها، لا إلى من يطبل ويزمِّر لها.

* * *

هذه المسائل التى كفر بها الوهابيون الأمة، وشنوا لأجلها على المسلمين حربًا شعواء فرقت الأمة ومزقتها لأشلاء متفرقة، هذه المسائل نفسها تأثر بها كثير من المبلغين، واستقرت فى قلوبهم، مع أن العلماء قديما وحديثا قد أشبعوها أدلة وبراهين على جوازها وعمل السلف والخلف بها"

ثم سقت بعض هذه الأدلة من كتاب "البيان" للدكتور على جمعة مفتى الديار المصرية.. ومع ذلك فقد لاقت هذه المقدمة اعتراضًا من البعض ما كنت أتخيله مطلقًا.

هذه الجماعة التى يقول المنتسبون إليها إنهم على السنة ما فهموا من

السنة إلابعض المظاهر كاللحية والعمامة والسواك وآداب الطعام وآداب النوم وهكذا..

هذه الجماعة التى يقول المنتسبون إليها أنهم على السنة، يخرج أفرادها فى جماعات قد يصل عدد الجماعة إلى عشرين فردًا، ومع ذلك لا تجمعهم فى الحقيقة عقيدة واحدة لكن يجمعهم عمل واحد هو محاربة عقيدة أهل السنة. يجلسون الساعات الطويلة كل يوم فيما يسمى بـ حلقة التعليم ولا ينفقون منها عشر دقائق فقط فى مذاكرة عقيدة أهل السنة والجماعة حتى تجتمع قلوبهم عليها.

أذكر أنه فى إحدى المرات جاءت جماعة من الهند إلى الحى الذى كنت أسكن فيه، وجاء اثنان من الجماعة وطلبا منى خفية من سائر الجماعة أن أصحبهما إلى مقام سيدنا الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة لزيارتهم.

وفى يوم زارنى فى بيتى أحد كبار مشايخ الجماعة فى مصر، فتحدثنا فى أمر الجماعة وهو ينكر ـ كل الإنكار ـ تأثر الجماعة بعقائد الوهابية مستدلاً على ذلك بهجوم بعض الوهابية على الجماعة وتأليفهم الكتب ضدها، فقلت له: أتستطيع أنت أن تقول فى دعائك على الملأ: اللهم إنى أسألك بجاه نبيك صلى الله عليه وسلم؟ فقال لى: أليس الأولى أن ندعو الله بأسمائه الحسنى؟ فكانت إجابته مطابقة لكلام الوهابية وهو ينكر تأثره بعقيدتهم..

وسألت فى مرة أخرى أحد كبار مشايخهم: أيمكن أن تسمحوا يومًا بأن يخرج معكم أفراد من الشيعة؟ فقال: إن الغرض من هذا الجهد هو

جمع الأمة كلها، فنحن نرحب بأى مسلم أن يخرج معنا.

هذه الطبيعة الخاصة لجماعة التبليغ، المستمدة من عقائد أهل "ديوبند" جعلت الجماعة ـ فى دعوتها ـ تنظر إلى الكم دون الكيف، وتقبل بين صفوفها كل الاتجاهات والبدع، وتلفظ بسرعة من كان على عقيدة أهل السنة مجاهرًا بها.

لذلك أقول اليوم ـ وأنا مطمئن لما أقول: إن جماعة التبليغ من أكبر العوامل التى نشرت الوهابية فى العالم، والله غالب على أمره ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

عقائد علماء ديوبند

قبل أيام جاءنى أحد الأصدقاء ممن يداومون على الخروج مع جماعة التبليغ ومعه نسخة من كتاب بعنوان: "المهنّد على المفنّد ـ عقائد علماء ديوبند" وهو ثلاث كتب فى مجلد واحد مكتوب على غلافه: تأليف فخر المحدثين حضرت مولانا خليل أحمد سهارنفورى قدس الله سره العزيز، والثانى: بإضافة عقائد أهل السنة والجماعة حضرت مولانا مفتى عبد الشكور ترمذى، والثالث: تصديقات قديمة وجديدة مع مقدمة حضرت مولانا قاضى مظهر حسين صاحب، طبع اتحاد بوك ديوبند، والكتاب الأول عبارة عن سؤال وجواب باللغتين الأردية والعربية، ويوافق فى الإجابات كثيرًا من عقائد أهل السنة.

يقول السؤال الثالث والرابع ص٤١:

هل للرجل أن يتوسل فى دعواته بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد الوفاة أم لا؟ وهل يجوز التوسل عندكم بالسلف الصالحين من الأنبياء والصديقين وأولياء رب العالمين أم لا؟

الجواب: عندنا وعند مشائخنا يجوز التوسل فى الدعوات بالأنبياء والصالحين من الأولياء والشهداء والصديقين فى حياتهم وبعد وفاتهم بأن يقول فى دعائه: اللهم إنى أتوسل إليك بفلان أن تجيب دعوتى وتقضى حاجتى إلى غير ذلك كما صرّح به شيخنا ومولانا الشاه محمد إسحق الدهلوى ثم المهاجر المكى ثم بيّنه فى فتاواه شيخنا ومولانا رشيد أحمد الكنكوهى رحمة الله عليهما إلى آخره.

ويقول السؤال الحادى عشر (ص٥٠):

هل يجوز عندكم الاشتغال بأشغال الصوفية وبيْعتهم وهل تقولون بصحة وصول الفيوض الباطنية عن صدور الأكابر وقبورهم وهل يستفيد أهل السلوك من روحانية المشايخ الأجلة أم لا؟

الجواب: يُستحب عندنا إذا فرغ الإنسان من تصحيح العقائد وتحصيل المسائل الضرورية من الشرع أن يبايع

شيخا راسخ القدم فى الشريعة زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة، قد قطع عقبات النفس، وتمرن فى المنجيات وتبتّل عن المهلكات، كاملاً مكملاً، ويضع يده فى يده ويحبس نظره فى نظره ويشتغل باشتغال الصوفية من الذكر والفكر والفناء الكلى فيه، ويكتسب النسبة التى هى النعمة العظمى والغنيمة الكبرى، وهى المعبر عنها بلسان الشرع بالإحسان، وأما من لم يتيسر له ذلك ولم يقدّر له ما هنالك فيكفيه الانسلاك بسلكهم والانخراط فى حزبهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المرء مع من أحب".. وأما الاستفادة من روحانية المشائخ الأجلة ووصول الفيوض الباطنية من صدورهم أو قبورهم فيصح على الطريقة المعروفة فى أهلها وخواصها، لا بما هو شائع فى العوام.

ويقول السؤال الثانى عشر:

قد كان محمد بن عبد الوهاب النجدى يستحل دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، وكان ينسب الناس كلهم إلى الشرك ويسب السلف، فكيف ترون ذلك، وهل تجوزون تكفير السلف والمسلمين وأهل القبلة، أم كيف مشربكم؟

الجواب: الحكم عندنا فيهم ما قال صاحب "الدر

المختار" (ثم بين قوله فى الخوارج ثم قال:) وقال الشامى فى حاشيته: كما وقع فى زماننا فى أتباع عبد الوهاب الذين خرجوا من نجد وتغلبوا على الحرمين، وكانوا ينتحلون مذهب الحنابلة لكنهم اعتقدوا أنهم هم المسلمون وأن من خالف اعتقادهم مشركون، واستباحوا بذلك قتل أهل السنة وقتل علمائهم.. (ثم قال:) ثم أقول: ليس هو ولا أحد من أتباعه وشيعته من مشايخنا فى سلسلة من سلاسل العلم من الفقه والحديث والتفسير والتصوف."

ومن كبار علماء ديوبند من وصف حال محمد بن عبد الوهاب النجدى ودعوته بأوسع من هذا، وهو رئيس مدرسة ديوبند وشيخ الحديث بها الشيخ حسين أحمد المدنى فقال:

"ظهر محمد بن عبد الوهاب النجدى فى بدء القرن الثالث عشر من نجد العرب وبما أنه كان ينتحل عقائد فاسدة، ويرى آراء باطلة طالت أهل السنة والجماعة، وظل يستكرههم على تلقى عقائده ويستحل أموالهم ويعدّها غنائم ويحتسب بقتلهم عند الله جزاءً ومثوبة، ويعتقده سببا للرحمة، وآذى أهل الحجاز عامة، وأهل الحرمين خاصة إيذاءً شديدًا، ونطق فى السلف الصالحين وأتباعهم بكلمات بالغة المدى من الإهانة وسوء الأدب، واضطر كثير من الناس ـ من جراء أذيته الشديدة ـ إلى مغادرة المدينة المنورة ومكة المعظمة، واستشهد على يديه

وأيدى جنده الآف من الناس.

ومحصل القول أنه كان رجلاً ظالمًا باغيًا سفاك الدماء فاسقًا، من أجل ذلك أبغضه ـ وأتباعه ـ أهل العرب من صميم القلب.."[1]

*　　*　　*

هذا الكتاب "المهند على المفند" وضعه علماء ديوبند للردّ على كتاب "المستند المعتمد" للإمام أحمد رضا الذى مر بنا ذكره من قبل، لذلك حاول مسايرة عقائد أهل السنة لينفى عن علماء ديوبند ما أتهموا به من خروج عنها، ومن ثم سعى للحصول على تقريظات من علماء العرب وغيرهم كما فعل الشيخ الإمام من قبل. ومع ذلك أبت عقائد الوهابية إلا أن تطلّ برأسها فى عدة مواضع هنا وهناك مما دفع بعض المقرظين إلى التنبيه إليها مثل وصفهم بعض أفعال المسلمين بأنها كأفعال المجوس. ومثل كلامهم فى أمور دقيقة شديدة الحساسية لا يجب أن يتعرض لها إلا خواص العلماء وإذا وُجدت الضرورة لذلك، لكنهم يخوضون فيها ويعرضونها على عوام الناس مما يحدث فتنا شديدة.

فبينما رأينا التأييد المطلق من علماء العرب للإمام أحمد رضا فيما كتبوا من تقريظات نرى التحفظ منهم على بعض عبارات علماء ديوبند. من أمثلة ذلك ما كتبه الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر الشريف، قال:

---

(1) مرآة النجدية بجواب البريلوية للشيخ إسماعيل الأزهرى نقلاً عن كتاب الشهاب الثاقب (معربا) للشيخ حسين أحمد المدنى ص٤٣.

".. غير أن إنكار الوقوف عند ذكر ولادته صلى الله عليه وسلم (وذلك عند قراءة المولد)، والتشنيع على فاعل ذلك بتشبيهه بالمجوس أو الروافض ليس على ما ينبغى لأن كثيرا من الأئمة استحسن الوقوف المذكور بقصد الإجلال والتعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم، وذلك أمر لا محذور فيه"

وحول نفس النقطة كتب الشيخ أحمد محمد خير الشنقيطى فقال:

"وأما قول الأستاذ: مُتَشبِّه بفعل المجوس. فهو مخطئ. فكان ينبغى للأستاذ عبارة هى أليق من هذه، لكونه حاكما لهم بالإسلام"

ومن ضمن التقريظات رسالة طويلة كتبها السيد أحمد البرزنجى حُذفت منها أجزاء، وكان من الأجدر إيرادها كاملة، لأنه ذكر فيها ثلاث نقاط أخذها على هذا الكتاب، لم يظهر منها إلا نقطة واحدة قال فيها:

"لكن أقول مع هذا نصيحة له ولسائر علماء الهند إنه ينبغى لهم عدم الخوض فى هذه المسائل الغامضة وأحكامها الدقيقة التى لا يفهمها إلا الواحد بعد الواحد من فحول العلماء المحققين فضلاً عن غيرهم، فضلاً عن عوام المسلمين، لأنهم إذا قالوا إن مقدورية مخالفة الوعيد والخبر الإلهى لله تعالى مستلزمة لإمكان الكذب فى الكلام اللفظى المنسوب إليه تعالى بالذات لا بالوقوع وأشاعوا

ذلك بين عامة الناس تبادرت أذهانهم إلى أنهم قائلون بجواز الكذب فى كلام الله تعالى[1]، فحينئذ يكون شأن أولئك العامة مترددا بين أمرين، الأول: أن يتلقوا ذلك بالقبول على الوجه الذى فهموه فيقعوا فى الكفر والإلحاد، الثانى: أن لا يلقوه بالقبول وينكروه غاية الإنكار ويشنعوا على قائله غاية التشنيع وينسبوه إلى الكفر والإلحاد، وكلا الأمرين فساد فى الدين عظيم"

مما تقدم يتبين لنا أن هذه المدرسة برمّتها ترتكز على قاعدة رخوة فى مجال العقائد، بحيث تسمح لأفرادها أن يقفوا فى مناطق مختلفة أو أن يتحركوا فى أكثر من اتجاه، ولكن فى جميع الأحوال هم وهابية الهوى، ديوبندية العصبية.

وهنا يجدر بنا أن نسأل: هل يكون المؤمن ـ قط ـ إلا كتابا مفتوحًا أمام الجميع وفى كل الأوقات، ظاهره كباطنه؟ هل توجد حجة ـ أو سبب ـ قط ـ يجعل للمؤمن ظاهرًا يبديه وباطنًا يخفيه؟

❋ ❋ ❋

(1) إشارة إلى كلام رشيد أحمد الكنكوهى فى هذا الشأن والذى مر بنا سابقا.

موالاة الكافرين: [1]

من المواقف العصيبة التى تعرض لها مسلمو شبه القارة الهندية، والتى تسببت فى إحداث كثير من الارتباك والريبة فى صفوف العلماء ما حدث عقب الثورة على الإنجليز سنة ١٨٥٧م والتى شارك فيها الهندوس مع المسلمين: أبرزت تلك الأحداث سؤالاً فرض نفسه فرضًا، وقام شاخصًا أمام الأعين وهو:

(1) نقلا عن كتاب "من أقطاب الأمة"مع بعض الاختصار.

هل تجوز موالاة الكافرين؟

والله سبحانه وتعالى يقول:

- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء: ١٤٤]

- ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩]

- ﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾.

[المائدة: ٨١]

- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة: ١]

* * *

هاهوذا الواقع المُشاهد، والمصلحة التى تراها العين واضحة وضوح الشمس تتعارض مع كتاب الله وأوامره فكيف يكون المخرج؟

إننا لكى نقدر هذا الموقف بعض قدره يجب علينا أن نرجع قليلا إلى طرفٍ من مقدمات هذه الثورة وأحداثها ونتائجها.

* * *

الثورة على الإنجليز:

حكم المسلمون الهند لأكثر من ثمانمائة سنة، ازدهرت فيها أحوال البلاد وساد فى معظم أوقاتها الرخاء والاستقرار، وكان الهندوس وغيرهم من الوثنيين يعيشون فى ظل الحكومات الإسلامية التى أخذت على عاتقها -حسب شريعة الإسلام- حمايتهم وحماية ممتلكاتهم..

لم يُكرهوا أحدًا على الدخول فى الإسلام، ولم تعرف الهند -مثلها مثل باقى ديار الإسلام- الاضطهاد الدينى الذى ساد فى غير بلاد المسلمين. فكان نتيجة هذه السياسة أن ظل غالبية أهل الهند على وثنيتهم.

ولما وطأت أقدام الأوروبيين أرض الهند كان هدفهم الأول حرب الإسلام والمسلمين ونهب بلادهم، وقد تنوعت صور هذه الحرب، وفى كلها كانوا يتقربون إلى الهندوس وغيرهم على حساب المسلمين، ويستعدونهم على المسلمين ويستعينون بهم على إبادتهم. وظلت هذه الحرب على أشدها فى زمن البرتغاليين ثم الفرنسيين ثم الإنجليز حتى تم إزالة آخر سلاطين المسلمين سنة ١٨٥٨م وإنهاء الحكم الإسلامى فى الهند.

* * *

عندما دخل الإنجليز الهند، وسعوا إلى تحقيق أهدافهم فى السيطرة عليها، لم يتوسلوا إلى ذلك بالحرب مباشرة، ولكنهم تسللوا تسلل اللصوص عن طريق شركة أنشأوها للتجارة بين الهند وأوروبا، وكما يقول المثل: "تَمَسْكَنَتْ حتى تَمَكَّنَتْ"!

وهكذا أصبحت الشركة -تحميها الجيوش والأساطيل- هى الحاكم الفعلى للبلاد، ووضع الإنجليز أيديهم على كل صغيرة وكبيرة فيها.

نفس الطريقة حاولها الانجليز للتسلل إلى بلاد اليمن والسيطرة عليها ويروى التاريخ كيف أنهم -فى عهد الإمام يحيى حميد الدين- بعثوا إليه بسفارة تحمل فكرة إقامة علاقات تجارية وبناء خطوط حديدية بين أجزاء اليمن واستخراج المعادن من قبل شركة بريطانية أطلقت على نفسها اسم "الشركة الزيدية" لكن خدعتهم لم تنجح مع الإمام.

تقول الرواية:

"وحين التئم مجلس الإمام فى المقام، أعاد على أسماع

المجتمعين ما قام به الساسة البريطانيون فى بداية سيطرتهم على الهند، حيث شكلوا شركة سمّوها "الشركة الهندية"، تعاطت أعمال التجارة فى الهند، ثم مازالت أعمالها تتسع حتى استعان بها ملوك الهند فى حروبهم مع بعضهم البعض، والشركة قامت بتشكيل فرق عسكرية أطلقت على بعضها "الفرقة الجعفرية" إرضاءً للشيعة، وعلى الفرقة الأخرى "الفرقة العمرية" إرضاءً للسنة، وقدّمت الأموال والسلاح والذخائر للفرقتين، ودعمت الحروب بين ملوك الهند، حتى إذا حانت الفرصة أعلنت الشركة بيع أملاكها ومصالحها إلى الحكومة البريطانية التى أسرعت إلى الاستيلاء على نحو سبعين مملكة فى البلاد الهندية ما بين مسلمة ووثنية، وصارت كلها تحت حمايتها، وأضاف ملك انجلترا إلى لقبه أيضا: ملك الهند، فلابُدّ من الحيطة والحذر من ألاعيب الانجليز.."[1]

❋ ❋ ❋

عندما جاءوا كانت الهند أغنى بلاد الدنيا، تموج بالخيرات وينعم أهلها بالرفاهية والاستقرار، فلم يخرجوا منها إلا بعد أن أصبحت أفقر البلاد قاطبة.

لقد رأيت بنفسى من مظاهر الفقر فى هذا البلد الكبير قبل عشرين

---

(1) سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين المسماة كتيبة الحكمة من سيرة إمام الأمة للمؤرخ عبد الكريم بن أحمد مطهَّر، دار البشير، الأردن، ١٩٩٨م، الجزء الأول ص٣٧٧.

عاما مالم أر مثله من قبل، إنها بركات الإنجليز الذين امتصوا دماء الهند امتصاصًا مجرما طوال مدة حكمهم البغيض، فحولوا خيراتها إلى بلادهم، واضطروا أهل الهند -درة التاج البريطانى- إلى الذل بعد العز، وإلى الحاجة بعد الاستغناء وإلى المرض بعد الصحة ورفاهة العيش، ولحق المسلمين من هذا البلاء النصيب الأوفى.

* * *

عمل الإنجليز على تجريد المسلمين من أموالهم وانتزاع أراضيهم وإعطائها للهندوس وغيرهم، ونزعوا من أيديهم الوظائف والمناصب والرتب ليولوها غير المسلمين.

ومع أن الإنجليز كانوا أقرب إلى الوثنيين منهم إلى المسلمين، إلا أن أعمالهم الإجرامية وشرههم فى سرقة أقوات الناس وامتصاص دمائهم قد جعل أهل الهند من غير المسلمين -أيضا- يبغضونهم أشد البغض، ومما زاد الطين بلّة أنهم كانوا يتعالون على أهل البلاد، ويسخرون من أديانهم، لاسيما من الإسلام الذى ختم الله به الرسالات.

ومنذ تمكنوا من البلاد راحوا يضيقون على المدارس العلمية التى امتلأت بها البلاد، سلبوا الأوقاف الإسلامية التى كانت مخصصة لها، والتى كانت تنفق عليها بسخاء، وأغلقوا آلاف المدارس، وسمحوا بإنشاء عدد قليل من المدارس التى توافق سياساتهم فى التفريق بين المسلمين، ونشر العقائد الهدامة بينهم وهو ما عبّر عنه أحد ساساتهم بقوله: "علينا أن نعدّ من أهل الهند جماعة تشبه الهنود فى اللون والدم وتماثل الانجليز فى الفكرة والعقلية".

وراحوا عن طريق المبشرين النصارى يحاولون أن يرغموا الناس على التحول إلى النصرانية.. فلما طفح الكيل ولم يعد للناس طاقة على التحمل والصبر انفجرت الثورة ضدهم فى أنحاء متعددة من الهند وكان ذلك فى سنة ١٢٧٤ من هجرة النبى المصطفى ρ الموافق لسنة ١٨٥٧ من ميلاد السيد المسيح عليه الصلاة والسلام.

*　　*　　*

فشلت الثورة لتفرق كلمة القائمين عليها ولأسباب أخرى، وكان رد الإنجليز عليها بربريًا.. متوحشًا، انصبّ جله على المسلمين، وزادت عليهم -من بعدها- أعمال التنكيل وأنواع المظالم، وأسرف الإنجليز فى هدم المساجد، ودخلوا الجامع الكبير بدلهى بخيولهم وأغلقوه ومنعوا الصلاة فيه لعدة سنوات.

ورأى الساسة البريطانيون -وهُم مَن هُم خُبثا ودهاءً- أن ينفثوا عن طاقات الغضب الكامنة فى أهل الهند بطريقة المفاوضات والدوران فى ساحات السياسة ودهاليزها. فأوعز اللورد كيرزن الحاكم العام للهند -آنذاك- لبعض رجالات الهند من المسلمين وغير المسلمين بإنشاء المؤتمر الهندى الوطنى ليتقدم للحكومة البريطانية بمطالب الهند، وتبدأ المفاوضات إلى ما شاء الله.

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى طلبت إنجلترا معونة الهند، ووعدت مقابل ذلك بإعطاء الهند الاستقلال، وكالعادة لم يف الإنجليز بشىء من مواعيدهم، وانتخب أعضاء المؤتمر الهندى المهاتما غاندى زعيما، وقامت حركة عدم التعاون مع الإنجليز سنة ١٩٢٠، وفيها تضامن المسلمون مع

الهندوس وسيطر على كثير من المسلمين حماسة وطنية وأمنيات وأوهام لا تقوم على أساس، إذ كيف ينتظر المسلمون النفع على أيدى الكافرين مهما كانت الظروف؟

وبلغ الحماس الزائف ببعض المسلمين إلى درجة أنهم طلبوا من إخوانهم المسلمين الكف عن ذبح الأبقار مجاملة للهندوس الذين يقدسونها.

❋ ❋ ❋

لم ينخدع شيخنا الإمام أحمد رضا خان بهذه المظاهر، لأن من رسخ فى قلبه الإيمان يرى الله من وراء المظاهر، فلا يتأثر بها، ولا يلتفت إليها إلا بالقدر وبالكيفية التى يريدها الله منه. لذلك ثبت على موقفه من تحريم موالاة الكافرين.

كان "غاندى" يغرر بالمسلمين ويدعوهم إلى الإضراب وعدم التعاون مع الإنجليز، واستغل لهذه الدعوة مبدأ تحريم موالاة الكافرين، لكن الإمام أحمد رضا الفقيه الربانى أعلن أن الإسلام يطالب بعدم موالاة الكفار ومحبتهم، ولكن لا يطالب بعدم معاملتهم، وفكرة الإضراب تتعلق بالمعاملة لا بالموالاة، وأن عدم الموالاة لا ينطبق على الإنجليز وحدهم بل على الهندوس أيضا، فتخصيص الإنجليز فقط دون الهندوس لا مبرر له، وأن مقاطعة مشرك مع ممالئة مشرك آخر لا يتمشى مع الإسلام.

وهكذا اعترض على فكرة المؤتمر الهندى مبينا أن هذه الحركة من شأنها إضعاف المسلمين، وجعل الهندوس أصحاب نفوذ وسلطان

عليهم، وكان يقول إن كل أمة من أمم العالم أعداء للمسلمين سواء كانت أمة إنجليزية أو يهودية أو الكفار والمشركين أو عبدة النجوم أو المجوس، فكما أن الموالاة والتضامن لا يجوزان مع الإنجليز كذلك لا يجوزان مع الهندوس..

أيّد الدعوة للمقاطعة ونهض لها غاندى وجواهر لال نهرو من الهندوس، ومن المسلمين الشيخ أبو الكلام آزاد والشيخ حسين أحمد المدنى من علماء "ديوبند" وكان جمهور علماء "ديوبند" مع هذه الدعوة.

وبينما كان محمد على جناح ومحمد إقبال يعملان على إقامة الوحدة بين المسلمين والهندوس ضد الإنجليز، فى ظل الحماسة الوطنية التى بلغت أشدها، كتب الإمام أحمد رضا عدة كتب ورسائل يبين فيها وجه الحق فى هذه القضية التى التبست على كثير من السياسيين، بل وعلى عدد من كبار علماء الدين.

لم يلتفت أولئك – فى فورة الحماس – لكلام الشيخ، ومنهم من اتهموه بأنه ما قال ذلك إلا لاسترضاء الإنجليز وبإيعاز منهم، ومع مرور الأيام تكشفت الحقائق، وتبين صدق ما قال به الإمام وأنه كان على نور من ربه، فرأى مالم يروا، وعرف مالم يعرفوا، وتنبأ بحدوث مالم يكن يخطر لهم على بال، لأنه تمسك بأحكام شرعنا الشريف ولم يتأثر بالظروف والأحوال.

وضع الإمام خلاصة هذه القضية فى سطور قليلة، لكنها مضيئة، ما أحوج المسلمين –اليوم خاصة– إلى أن يستضيئوا بنورها فى هذه الظلمات التى غلَّفت حياتهم. قال فيها:

"اعرضوا أيها المسلمون عن تبديل الأحكام الإلهية، واختراع الأحكام الشيطانية، اقطعوا أواصر الوحدة مع المشركين، واهجروا المرتدين، وتشبثوا بذيل سيدنا محمد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فإن الدين الإسلامى إذا ظفرنا به وبوسيلته السنية فلا حاجة لنا إلى هذه الدنيا ومغرياتها".

جدير بالذكر التنويه بأن محمد على جناح ومحمد إقبال قد غيرا فكرهما فيما بعد عندما تبين لهما فساد ما كانوا يعتقدون، وكان من نتاج هذا التغيير عملهما لإنشاء دولة باكستان الإسلامية التى قامت بالفعل فى سنة ١٩٤٦م.

* * *

قال العلامة الدكتور حسين مجيب المصرى فى مقدمته الطويلة للمنظومة السلامية، طبعة الهند:

"وقبل وفاته بعام واحد، وذلك عام ١٩٢٠ أخرج كتابًا بعنوان "المحجة المؤتمنة فى آية الممتحنة" قال فيه: إن الموالاة مع المشركين -كل المشركين- حرام، وإن كان أبًا أو ابنًا أو أخًا أو قريبًا لأحد".

"وكان لما ذكره فى كتابه هذا أعمق الأثر فى نفوس أكابر الزعماء فى شبه القارة.. وأفضى الأمر بالذين كانوا يميلون إلى موالاة الهندوس إلى الإحجام عن ذلك، وتابعهم على

ذلك زعماء الرابطة الإسلامية وفى طليعتهم محمد إقبال، فنادوا بوجوب إقامة دولة خاصة بالمسلمين فى شبه القارة، وعليه فهذا الكتاب كان الأساس الذى قامت عليه دولة باكستان".

* * *

بقى علماء "ديوبند" على موقفهم حتى أن الشيخ حسين أحمد المدنى شيخ الحديث بدار العلوم "ديوبند" كان يقول إن الأقوام تتشكل بالأوطان ومعنى ذلك أنه يقدم الاعتبارات الوطنية أو القومية على الدين مما حدا بالعلامة الشاعر محمد إقبال إلى الرد عليه بأبيات باللغة الفارسية ختمها بما ترجمته:

"عليك أن تحضر فى حضرة رسول الله فإنه هو الدين
ومن لم يحضر فى حضرته ولم يتعلق به
فهو وأبو لهب سواء".[1]

* * *

---

(1) من أقطاب الأمة ص٦٤.

جهلة المتصوفة

إن موقع التصوف من الدين كموقع الروح من الجسد، فكما أن الروح إذا قويت شغلت البدن بالطاعات، كذلك التصوف إذا قوى فجّر فى الأمة طاقات الخير..

لكن التصوف ـ أيضا ـ يمر بأوقات يضعف فيها، وذلك حين يقل رجاله الصادقون، ويكثر الجهال والأدعياء والمنتفعون! مما حدا بالربانيين العارفين أن يبذلوا جهودهم فى سبيل الإصلاح..

فى أوائل القرن الخامس الهجرى، سنة ٤٣٧هـ كتب الإمام القشيرى

رسالته الشهيرة التى أصبحت دستورًا لأهل التصوف فى العالم، والتى توجه بها "إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام". فى هذه الرسالة سعى لتصحيح بعض الانحرافات التى ظهرت على بعض المنتسبين إلى التصوف فى زمنه ورسم معالم الطريق للسالكين، وقدم نماذج من رجالات التصوف الصادقين.

ولم يزل هذا دأب المصلحين فى كل زمان ومكان، ولعل نموذج الإمام حجة الإسلام أبى حامد الغزالى من أوضح النماذج، وكذا الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ أبو مدين وغيرهم كثيرون أكثر من أن يحصيهم مثل هذا المقام.

كم حذّر الربانيون من حب الشهرة الذى يدفع أحيانا غير الصادقين إلى ادعاء ما ليس لهم فيضرّون أنفسهم ويضرون غيرهم.

قال أبو الحسن الشاذلى: "من أقبل على الخلق قبل خمود نار بشريته وقع من عين رعاية الله، فاحذروا هذا الداء العضال الذى هلك به كثير، فقنعوا بتقبيل العامة أيديهم."[1]

وقال أبو مدين الغوث: "من خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة دعته لذلك فهو مفتون، وكل من ادعى مع الله تعالى حالة ليس على ظاهره منها شاهد فاحذروه."[2]

وقال عبد الغفار القوصى: "كل فقير ليس له حال يحميه فليس له

---

(1) طبقات المناوى ٢/ ١٣٢.

(2) نفس المصدر ص٥٦.

التظاهر بالطريق."[1]

والصادقون من أهل الله يعرفون خطر التعرض للمشيخة بين الناس تبعًا لهوى النفس، وكان أبو العباس المرسى يقول: "والله ما جلست للناس حتى هُدِّدت بالسلب وقيل لى: لئن لم تجلس لسلبناك ما وهبناك"[2]

أما الجاهل فهو مجازف لا يأبه بالعواقب من شدة جهله فيوقع نفسه ومن يتبعه فى الهلاك، لذلك قيل إن عدوا عالما خير من صديق جاهل.

كان جهلة المتصوفة من أهل البدع ممن تصدى لهم شيخنا الإمام، لم يجعله حبه للتصوف يتعصب لأهله ـ على أية حال كانوا عليها ـ كما نرى من الكثير ممن ينتصرون لأنفسهم أو لفرقهم على حساب الحق، فهو أكبر من ذلك، وحاله كله دالٌّ على أنه لم يقدم ـ فى حياته كلها ـ على الله شيئا قط.

❊ ❊ ❊

ركّز الإمام على فئة المنتسبين إلى التصوف، والمتحدثين باسمه من أهل الطرق الصوفية وكانت قد فشت بينهم بعض مظاهر الفساد التى تبعد التصوف عن جوهره، فشمّر عن ساعد الجد، وراح يقتلع من بستان التصوف الحشائش الضارة حتى تستقيم عيدانه وتهتز خضرة وثمارًا.

كتب الأستاذ جلال الدين فى رسالته فصلاً جميلاً طويلاً بعنوان "موقف الإمام أحمد رضا خان القادرى من التصوف" أشار فيه إلى

(1) نفس المصدر ٣/ ٣٥.

(2) تقريب الأصول بمعرفة الله والرسول للشيخ أحمد زينى دحلان، طبعة الحلبى ص٨٣.

عشرات القضايا المهمة التى تكلم فيها الإمام، وإنى أقتطف من هذا الفصل بعض العبارات من هنا وهناك على سبيل المثال فقط لعلها تشير إلى بعض جهود الإمام فى هذا المجال. قال:

- "نادى العلماء والصوفية فى عصره إلى إصلاح الطرق التى يتبعونها فى سبيل تزكية النفس، وأبان لهم الفرق بين التصوف الصحيح السنى الحقيقى الذى يتناول معنى الإحسان والوصول إلى الله تعالى وطلب مرضاته، والتصوف الباطل البدعى المجازى الذى ينحصر فى الرّقى والتمائم والمراسم والمظاهر فقط. وألف فى ذلك كتبا قيمة لئلا يختلط التصوف بغيره".

-"فإصلاح التصوف فى رأى الإمام لا يكون إلا بإرجاعه إلى العقيدة الإسلامية، عقيدة أهل السنة والجماعة، والاقتداء فى ذلك بالصوفية السنيين المتمسكين بالكتاب والسنة، أمثال الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ جُنيد البغدادى والقشيرى والمحاسبى والغزالى وغيرهم من علماء التصوف الصحيح".

-"وينتقد الإمام المشايخ الأدعياء الذين يتصدرون للمشيخة وليس لهم إذن من الشيخ لأخذ البيعة، ويصفهم بقطّاع الطريق، فيقول: "وجلس جماعة فى عصرنا من غير إذن من أشياخهم وصاروا يأخذون العهد على المريدين من

غير علم بالطريق، فأفسدوا أكثر مما أصلحوا، وكان عليهم إثم قطاع الطريق أى طريق القوم، وربما كان إثمهم أعظم من إثم قطاع الطريق..

إنهم شيطان فى جسم إنسان".

* * *

وأخطر من ذلك أن بعضهم تكلموا فى مسائل دقيقة عن غير ذوق ولا معرفة فأصبحوا ألعوبة فى يد الشيطان حتى أخرجهم عن الملة. قال الشيخ يصف أولئك المبطلون فى كتابه "المستند المعتمد" :

"ومنهم المتصوفة المتصلفة المبطلة المتكلفة القائلة بالاتحاد أو الحلول، أو سقوط التكاليف عن العارفين مع بقاء العقول، لا بمعنى فناء الإرادة فى إرادة الله تعالى فلا يبقى تكليفا، ولا بمعنى نفى الأفعال والإرادات كلها عنهم لفناء أنفسهم، فلم يبق لهم فى حضرة الوجود دعوى اسم ولا رسم، وإنما ربهم هو الذى يتولاهم، فيحركهم كيف يشاء ويصرفهم، وهو المشار إليه بالحديث الصحيح: "كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها"، بل بمعنى أنهم إذا وصلوا جلوا أن يؤمروا بشىء، أو ينهوا عنه، فيُحل الله لهم الحرام، ويُسقط عنهم الفرائض، وترى بعضهم يستخف بالشريعة الغراء جهارا، ويقول: الشرع طريق،

فمن وصل فما له وللطريق؟ ويقول: صلاة الزاهدين الركوع والسجود، وإنما صلواتنا ترك الوجود، يتمسك به على تهاونه بالصلاة، وتركه الجمع والجماعات، وترى كل عفريت نفريت منهم يدعى الألوهية لنفسه ولمشايخه، ويتستر بعويصة وحدة الوجود، وأنا والله مؤمن بوحدة الوجود، وحقيتها جلية عندى كالشمس على رابعة النهار، ولكن أين هؤلاء المفرقون بين كبرائهم وبين أعدائهم فيسمون فريقا آلهة، وفريقا شياطين من وحدة الوجود، المتكلمة عن مرتبة الجمع، نعم الوجود واحد، والموجود واحد والكل ظلال وعكوس، والألوهية ليست إلا لله لا لكم، ولا لمشايخكم، فأنى تصرفون، مالكم كيف تحكمون، ولولا ضيق نطاق البيان عن اجتلاء هذه العروس لأتيت ههنا بما فيه شرح الصدور وجلاء العيون وبهجة النفوس."[1]

كثيرة هى المسائل والقضايا التى تعرض لها الإمام صغيرة كانت أو كبيرة فى فتاويه، وأفرد كثيرا منها بمؤلفات كاملة.

فمثلاً عندما رأى بعض جهلة الناس يسجدون سجدة التحية عند زيارتهم لأولياء الله الصالحين أعلن بطلان هذه العادة، وأثبت بالبراهين حرمة سجود التحية لغير الله تبارك وتعالى، وكتب فى ذلك كتابا بعنوان

---

(1) تنقية الايمان من عقائد مبتدعة الزمان المعروف باسم المستند المعتمد، ص٢٦١.

"الزبدة الزكية لتحريم سجود التحية"[1].

وكان يخالف إيقاد المصابيح وإشعال الشموع على القبور، ويفتى ببدعيه ذلك إلا فى حالة واحدة وهى عندما يكون القبر فى الطريق أو فى المسجد ويستفيد من ضوئه المارة والمصلون. ودعا إلى عدم إنفاق الأموال الكثيرة على تزيين أضرحة الأولياء بالأقمشة والأشياء الثمينة، ولكن أجاز فقط وضع كساء واحد عليه وكان يقول إن النقود التى تنفق لأجل الأردية أولى بأن يُتصدق بها على الفقراء والمساكين، ويهدى ثوابها لروح ذلك الولى.

* * *

الهدف الثالث:

(1) "الزبدة الزكية لتحريم سجود التحية" للإمام أحمد رضا خان البريلوى، اهتم بطبعه مركز أهل سنت بركات رضا، كوجرات، الهند.

الإفتاء على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان

"قال مولانا محمد زكريا البيشاورى وهو من كبار علماء الفرقة الديوبندية:

لولا أحمد رضا لقضى فى الهند على الفقه الحنفى"[1].

هذه الكلمة تصور مدى عنفوان الفتنة الوهابية التى ثارت عواصفها فى الهند حتى كادت تودى بالمذهب الحنفى الذى يلاحظ زائر الهند وباكستان –اليوم– أن له هناك رسوخ جبال الهيمالايا.

مر بنا قبل صفحات بعض مظاهر الحرب التى شنها الوهابية الأوائل

---

(1) الشيخ أحمد رضا خان البريلوى وشىء من حياته وأفكاره ص٣٨.

فى نجد على المذاهب الفقهية، وعلى التقليد عامة، ودعوة كل أحد من الناس أن يجتهد فى الدين وأنه مثل أبى حنيفة ومالك والشافعى، وهى الأفكار التى نقلها إلى الهند الشيخ إسماعيل الدهلوى (الشهيد) فى كتابه "تقوية الإيمان"

وحتى لا يختلط الحابل بالنابل، وتصبح الأمور كلها فى دين الله سواء، بيّن الشيخ الإمام الشروط التى يجب أن تتوفر فيمن يجتهد فى الدين والتى توفرّت فى الأئمة المجتهدين الذين أخذت عنهم الأمة عبر القرون، فقال:

"للاجتهاد فى الإسلام مكانة مرموقة ورجال خصصهم الله تعالى لهذه المهمة العظيمة، فعلى العامى أن يقلدهم فى الأحكام الفرعية غير المنصوص عليها، من هنا جعلت له شروط وهى:

أن يكون المجتهد عالما بآيات الأحكام، وبصيرا بالأحاديث التى تتعلق بالأحكام، عارفا باللغة والأدب والنحو والصرف والمعانى والبيان، مطلعا على مذاهب السلف، خبيرا بالقياس وأصوله، وعلاوة لذلك تمتاز شخصية المجتهد بالزهد والورع ولا يتبع هواه فيما يجتهد ويستنبط.

من اتصف بالشروط المذكورة أعلاه وترى ملامح تلك الشروط فى آثاره الاجتهادية واستنباطاته الفقهية ويكون

متحليا بالأخلاق الكريمة الفاضلة لدرجة يحترمه عامة الناس وخواصهم ويعترفون بتفوقه العلمى، من اتصف بهذه الأوصاف فهو مجتهد فى المنظور الإسلامى وله حق الاجتهاد، ومن لم يتخلق بتلك الأوصاف والأخلاق والشروط المذكورة فليس له حق الاجتهاد وإن كان عالما وعليه أن يقلد أحد الأئمة المتبوعين بمذاهبهم.

ولقد اعترفت الأمة الإسلامية بالتفوق العلمى للأئمة الأربعة وأخذت اجتهاداتهم بعين الاعتبار، كما اعترفت بأنه لم يوجد لهم نظير فى عهدهم ولا بعدهم".[1]

وعلى النقيض من هذا الكلام تمامًا تلك الأفكار العجيبة التى نقلها إلى الهند الشيخ إسماعيل الدهلوى الشهيد عندما كتب كتابه الذى ردد فيه كلام محمد بن عبد الوهاب النجدى، والذى سمّاه "تقوية الإيمان"، فيه قال:

"ولا يتوقف فهم كلام الله ورسوله على علم غزير، وذكاء حاد، فإن الأنبياء لم يبعثوا إلا لهداية الضلال، وتعليم الجهال، وقد قال الله تعالى فى سورة الجمعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ

---

(1) العقيدة فى الإسلام للإمام أحمد رضا خان البريلوى، مركز أهل السنة بركات رضا، الهند، ٢٠٠٤م، ص٣٩. وفيه بيان لعقيدة الإمام، عقيدة أهل السنة وهى موجودة بكاملها فى ملاحق الكتاب، الملحق رقم (١).

ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وقد من الله بذلك على عباده، فمن مضى بعد ذلك يقول: إنه لا سبيل لغير العالم إلى فهم ما جاء به النبى، ولا طاقة لغير من سمت همتهم وتزكت نفوسهم أن يعمل بتعاليمه، ويسلك طريقه، فقد أنكر هذه الآية، وكفر بهذه النعمة.."[1].

أصبح الشيخ إسماعيل الدهلوى بهذا الكتاب أول من خرق إجماع المسلمين فى الهند، حيث لم تكن الهند تعرف قبله إلا أهل السنة والشيعة.[2].

انتشرت أفكار الوهابية بسرعة بين نفر ليس بقليل من العلماء والمشايخ، وهؤلاء بدورهم انقسموا إلى فريقين. فريق تحرر نهائيا من المذاهب الفقهية وهم أهل الحديث، والفريق الآخر تمسك بالمذهب الحنفى مع تمسكهم بعقيدة الوهابية فى تكفير وتشريك وتبديع المسلمين وهم أهل "ديوبند"، "ولم تقبل كل واحدة منهما لقب الوهابى لانتسابها إلى الحركة الوهابية صراحة، وذلك خوفًا من استنكار الناس"[3].

* * *

تعرّفنا ـ سابقًا ـ على جماعة "ديوبند"، وآن لنا الآن أن نعرف شيئا عن

---

(1) رسالة التوحيد، يعنى ترجمة كتاب "تقوية الايمان" ص٢٦.

(2) الإمام أحمد رضا خان وأثره فى الفقه الحنفى، رسالة ماجستير، مشتاق أحمد، مؤسسة أشرف بلاهور، باكستان، ١٩٩٧م ص١٠٠.

(3) الإمام أحمد رضا خان وأثره فى الفقه الحنفى ص١٠١.

أهل الحديث محاربى المذاهب الفقهية ومنكرى التقليد.

*　　*　　*

جماعة أهل الحديث

ظهرت هذه الطائفة فى الهند فى القرن الثالث عشر الهجرى، تولى زعامتها فى الهند الشيخ محمد نذير حسين الدهلوى، والسيد صديق حسن خان القنوجى، وعاونهما الشيخ حسين البهوفالى، والشيخ محمد بشير السهسوانى، والشيخ محمد حسين البتالولى وغيرهم الذين قاموا بنشر عقائدهم الخاصة فى شبه القارة الهندية، وكانت جماعة أهل الحديث

فى استنباط المعانى والفتاوى على طريقتهم الخاصة، يقفون مع ظواهر النصوص ويطلقون لأنفسهم حرية الأخذ عنها، ولذلك رفضوا الآراء الفقهية والفتاوى العلمية التى كانت نتيجة لاجتهاد أئمة المذاهب الأربعة، واعتمدوا على ظاهر القرآن والسنة التى رويت من الطريق المقبول عندهم، وبعبارة أخرى ذهبوا إلى حرمة التقليد ووجوب الاتباع بصريح الكتاب والسنة، وإبطال حجية القياس والإجماع، بل سلك بعضهم مثل الشيخ عبد الحق بن فضل الله البنارسى، والشيخ عبد الله الصديقى وغيرهما مسلك الإفراط، وبالغوا فى حرمة التقليد واتهموا المقلدين بالابتداع واعتبروهم أهل الأهواء ووقعوا فى أعراض الأئمة، ولا سيما الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان وأصحابه، وأنزلوهم إلى مرتبة لا تليق بهم، وظنوا فيهم ظنونًا سيئة وطعنوا على مقلدى المذاهب الأربعة كلها فقالوا:

١- إن مقلدى المذاهب الأربعة ليسوا من أهل السنة والجماعة.

٢- إن فرقة المقلدين من الفرق الضالة وغير الناجية.

٣- إن مقلدى المذاهب الأربعة يجب قتلهم.

٤- إن فرقة الأحناف من المرجئة الضالة المبتدعة.

ومن عجيب أمر هؤلاء أنهم جعلوا تقليد المذاهب الأربعة حرامًا واستكرهوا إطلاق لفظ "الحنفى" و "الشافعى" وغيرهما، وقد جاوز بعضهم حد الاعتدال فى النكير على مقلدى الأئمة الأربعة، وأنكروا

حجية الإجماع والقياس ولم يعدوهما من الأدلة الفرعية.[1]

* * *

"اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية"

عندما كتب الدكتور البوطى كتابه القيم: "اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية" هاجمه الوهابيون هجومًا شديدًا، وشنوا عليه حربًا تولى كبرها من كبار دعاتهم فى بلاد العرب الشيخ الألبانى ومحمود مهدى الاستانبولى وخير الدين وانلى الذين كتبوا كتابا للرد عليه فى ٣٥٠ صفحة بعنوان "المذهبية المتعصبة هى البدعة" ويصف الدكتور البوطى محتويات هذا الكتاب فيقول:

"ولقد جاءت مباحث هذا الكتاب كلها وسط أجيج من السباب والشتائم المستعرة المحمومة، و"الرّدح" العجيب الذى لم أجد مثله فى أى كتاب آخر لأى باحث مهما بلغ به المستوى أو انحرف به الاتجاه.

ورغم ما أعلمه من أنه كتاب مغمور فإنى لأرجو ـ مخلصًا ـ من القارئ أن يفتش عنه ثم يصبر على قراءته إلى آخره، وإن كنت أدعوه بذلك إلى قراءة شتمى بأقذع أنواع السباب، فإن فى وقوف القراء على هذا النوع من الحديث مع الآخرين ما يوضح هَويّة هؤلاء الناس وحقيقة

---

(1) الإمام أحمد رضا خان وأثره فى الفقه الحنفى ص١٠٢.

مستواهم، ويجعلنى فى غنى عن الإطالة فى تحذير الناس منهم.

ولا ينبغى أن أنفض عن نفسى شيئا من سبابهم وشتائمهم بعد أن أغرقوا بها خيرة سلفنا الصالح -رضى الله عنهم- وأفضل كتبهم ومؤلفاتهم.. لقد كان الغزالى -رضى الله عنه- مارقًا من الدين بنظرهم، وكان الإمام الباجورى أحمق فى حكمهم ونص كلامهم، وكان أبو حنيفة جاهلاً إلا ببضعة أحاديث لم يحفظ سواها -فى رأيهم-. والشيخ محمد الحامد -عليه رحمة الله- سائرًا على سنن المجوسية.. وعليه من الله ما يستحق.. ولم يخرِّج إلا حفنة من الشبان المسلوبين والحمقى..[1]

ويصف الدكتور البوطى -فى كتابه- ألاعيب هذه الطائفة وأكاذيبهم وتلبيسهم على المسلمين واتخاذهم كل وسيلة -بلا رادع من دين أو خلق- لنصر فكرهم المعوجّ وإنكارهم لبعض أقوالهم حسب مقتضى الحال ثم يقول:

"ولكن الواقع الذى يعلمه عنهم كل من ابتلى بهم أنهم لا يتركون إنسانا لهم عليه سلطان حتى ينتزعوا ثقة الأئمة الأربعة من قلبه، ويشعروه أنه ليس إلا واحدًا مثلهم،

---

(1) اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية، د.محمد سعيد رمضان البوطى، مكتبة الفارابى، دمشق، سوريا، ص١١١.

يستطيع أن يفهم كما فهموا، ويجتهد كما اجتهدوا. ثم يحملوه على أن لا يقبل أى حكم شرعى حتى يسأل عن دليله من الكتاب والسنة، وطالما رأينا أتباعهم من العوام وجهلة الناس يعترضون الأئمة والعلماء فى المساجد والطرقات يجادلونهم فى اجتهادات الشافعى وأبى حنيفة، ويصرّون إصرارهم على أنهم لا يعتدون بتقليد هؤلاء الأئمة، وإنما عمدتهم هى الكتاب والسنة، ولو كلفت أحدهم أن يقرأ لك ثلاث آيات من القرآن لأسمعك فيضًا من اللحون والتكسير والأخطاء"[1]

ثم أورد تفاصيل مناقشة دارت بينه وبين أحد دعاة اللامذهبية فى فصل وصفه بقوله: "لعل هذا الفصل يفوق فى الأهمية سائر فصول هذه الرسالة."

وأهمية هذه المناقشة، أو الذى استخلصته منها -أكثر من غيره- هو أن هؤلاء الناس الذين يدّعون العلم يتعاملون مع الدين باستخفاف شديد لا يتعاملون بمثله عند شراء كيلو طماطم أو خيار.

وسوف تجد نص هذه المناقشة ضمن ملاحق هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. (ملحق رقم٧).

* * *

هذه الصورة التى استعرضنا بعضا من جوانبها ألقت مزيدًا من

---

(1) اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية ص١١٣.

الضوء على تلك المدارس التى نشأت، ونمت، وتضخمت، وسارعت فى تشتيت الأمة وتفريقها شيعًا يحارب بعضها بعضا.

وهذا يبين –أيضًا– قيمة الهدف الثالث من الأهداف التى حدّدها الشيخ الإمام، وسخّر لها حياته المباركة الطيبة.

قال الدكتور مسعود أحمد:

"رفع أهل الحديث لواءهم ضد التقليد الفقهى، وادعوا الاجتهاد لأنفسهم، واعترضوا وانتقدوا على الفقهاء ومقلديهم بشدة، ومن حملة ألوية عدم التقليد وقادة هذه الفرقة فى الهند: الشيخ إسماعيل الدهلوى (الشهيد)، والشيخ نذير حسين الدهلوى، والشيخ ثناء الله الأمرتسرى والشيخ صديق حسن خان وغيرهم، وكان الإمام أحمد رضا يعد موقفهم هذا من التقليد بعيدا عن الفهم الصائب وعاملا قويا لتمزيق شمل المسلمين وتفكيك عراهم، ومناقضا لما قاموا به أنفسهم فى مجال العمل فإنهم كانوا مضطرين بالرغم من إنكارهم التقليد إلى تقليد إمام من الأئمة الأربعة فى القضايا والأحكام، وعلى الأقل لم يكن لهم سبيل إلى التخلص من ربقة الاتباع وتقليد عالم من علمائهم الموثوق بهم، فإن كل مسلم لا يقدر على استنباط واستخراج المسائل والأحكام من

الكتاب والسنة."[1]

وقال الأستاذ مشتاق أحمد شاه:

"وقد كان الإمام أحمد رضا خان أيضًا من أبرز علماء الحنفية وأشدائهم على اللامذهبية الخارجين عن المذاهب الأربعة، وقد صنف رسائل عديدة وكتبًا كثيرة تؤيد الدين الحق، وتدحض الأفكار الزائغة، وترد على ما ظهر من مخالفة الأئمة واتباع الهوى باسم الدعوة إلى الكتاب والسنة، كما كتب: "الفضل الموهبى إذا صح الحديث فهو مذهبى" شارحًا قول الإمام الأعظم أبى حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ وقد صنف مدافعًا عن مذهب الإمام أبى حنيفة فى الرد على اللامذهبين: "حاجز البحرين الواقى عن جمع الصلاتين" وصنف فى أهمية التقليد: "أطايب الصيب على أرض طيب"، وكتب رسالته "أجلى الأعلام بأن الفتوى على قول الإمام" فى أن أساس الفتوى للحنفية قول الإمام الأعظم رحمه الله تعالى"[2]

* * *

---

(1) الشيخ أحمد رضا خان البريلوى وشئ من حياته وأفكاره، ص٣٧.

(2) الإمام أحمد رضا خان وأثره فى الفقه الحنفى، ص١٠٤.

مفتى الأمة:

كان الإمام الشيخ -كما رأينا سابقا- معظمًا لله وللرسول وللأربعة الخلفاء أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، ولسائر الصحابة، ولسلف الأمة وعلمائها المجتهدين لاسيما أئمة المذاهب الفقهية الأربعة، ولجميع أولياء

الله الصالحين، ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ ويقول تعال ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾.

"كان ـ رحمه الله تعالى ـ ينظر إلى الفقه نظرة مهابة وإجلال لما فيه من إدراك مقاصد الشارع، ولما يترتب على أحكامه من العواقب"[1]

أهّله الله للإفتاء فى كل ما يتعلق بحياة المسلمين، فكان وجوده بين الناس جلاءً للظلمات، وهدايةً للحيارى، وتثبيتًا للمؤمنين، وقد بدأ فى الإفتاء فى سن مبكرة جدًا، فى سن الرابعة عشرة، وظل فى مقام الإفتاء أربعة وخمسين عامًا.

استفتاه المسلمون من أنحاء العالم الإسلامى على اتساع رقعته وتوزعه بين قارات الدنيا. وكان يفتى باللغة العربية والفارسية والأوردية، وتترجم بعض فتاواه، فكان نتاج ذلك هذه الموسوعة الفقهية الفريدة المسماه: "العطايا النبوية فى الفتاوى الرضوية" التى تنتظم ثلاثين مجلدًا كبيرًا تقريبا، وقد أدهشت كثيرًا من العلماء لسعة بصيرة الإمام ودقة بحثه وتحقيقه حتى قال أحدهم: "والله لو رآها أبو حنيفة النعمان ـ رحمه الله تعالى ـ لأقرت عينه، ولجعل مؤلفها من جملة الأصحاب".

قال الشيخ الإمام ـ رضى الله عنه: "إن الاستفتاءات تأتينا من أقطار الهند وبلاد أخرى مثل أفغانستان وبورما والصين وإفريقيا وأمريكا والعراق والحرمين الشريفين فتجتمع عندنا فى بعض الأحيان حوالى

---

(1) الإمام أحمد رضا خان وأثره فى الفقه الحنفى ص٢٠٢.

أربعمائة استفتاء، وإنى بعون الله أقوم بخدمة الإفتاء منذ إحدى وخمسين سنة، والحمد لله نقوم بالإفتاء منذ عهد جدنا الشيخ رضا على خان حتى يومنا هذا".[1]

وقد اشتهر أن للإمام ما يقرب من ثلاثمائة كتاب فى الفقه منها أيضا "جد الممتار على ردّ المحتار" فى خمس مجلدات، قيل عنه إنه من مآثر الشيخ العظيمة، ومن درر الفقه الغالية التى يفتخر بها الفقه الإسلامى.

ومنها كتاب: "كفل الفقيه الفاهم فى أحكام قرطاس الدراهم". الذى صنفه فى مكة المكرمة فى أقل من يوم ونصف عندما سُئل عن النقود الورقية اثنى عشر سؤالا، وكان ذلك عند أول استعمالها بدلاً من النقود الذهبية والفضية.

فلما عُرض على علماء الحرمين أكبروه وأعجبوا به غاية الإعجاب، وكانت مكة والمدينة فى ذلك الوقت مجمع العلماء والفضلاء من أنحاء العالم الإسلامى.

وصف الإمام أحمد رضا خان وقع الكتاب عليهم بقوله:

"نظر علماء مكة الكرام والفقهاء العظام "كفل الفقيه" وسمعوه ونقلوه، والحمد لله كلهم أشادوا به إشادة بالغة مثل شيخ الأئمة والخطباء كبير العلماء مولانا أبى الخير ميرداد الحنفى، وعالم العلماء المفتى سابقا والقاضى حاليا العلامة مولانا الشيخ صالح كمال الحنفى، ومولانا حافظ

(1) الإمام أحمد رضا خان وأثره فى الفقه الحنفى ص١٥٣.

كتب الحرم الفاضل السيد إسماعيل خليل الحنفى، ومولانا مفتى الحنفية عبد الله صديق حفظهم الله تعالى"[1].

* * *

رأينا ـ قبل صفحات ـ كيف أن الله منّ على الشيخ بعلوم جمة حتى قيل إنها بلغت ستين علما، ولقد وظف هذه العلوم فى مجال الفتوى أيضًا، فما من مفتى إلا ويحتاج للرجوع –فى بعض المسائل– لأهل الاختصاص مثل الأطباء أو الفلكيين أو أهل الزراعة أو الصاغة وهلم جرا.. أما الإمام أحمد رضا فإنه كان مستغنيا بنفسه –وبما أفاض الله عليه من العلوم– عن سؤال غيره، فهو –بلا مبالغة– جهة الاختصاص –أيضا– فى شتى العلوم، ومن فتاويه ما يبين ذلك بجلاء.

قال الأستاذ مشتاق أحمد:

إن الإمام أحمد رضا خان تبحر فى العلوم الدينية كالتفسير والحديث والرجال، وأصول التفسير، والحديث، وأصول الفقه، ورسم المفتى، وتوسع فى غيرها من الفنون، كاللغة، والهيئة، والنجوم، والتوقيت، وصنف فى كل ذلك تصانيف تشهد ببراعته، وحذقه وابتكاره فى كل فن، واستطاع بمقدرته الهائلة أن يدقق نظره فى الفقه ويستخدم تلك العلوم لحل مشاكل الفقه، ويبلغ فى بحوثه

---

(1) نفس المرجع، ص ٢٠٢.

مبلغا يقصر عنه العلماء الذين لم يتبحروا فى تلك الفنون، وهذه الميزة تتجلى فى فتاواه، كما يعرفها من طالعها، وهنا جدير بنا أن نشير إلى شيء من الشواهد:

يقول الإمام السبكى الشافعى: لو شَهدت بينة برؤية الهلال ليلة الثلاثين من الشهر، وقال الحساب بعدم إمكان الرؤية تلك الليلة. عُمل بقول أهل الحساب، لأن الحساب قطعى، والشهادة ظنية. وسئل الشهاب الرملى الكبير عن قول السبكى هذا ـ فأجاب بأن المعمول به ما شهدت به البينة، لأن الشهادة نزّلها الشارع منزلة اليقين، وما قاله السبكى مردود، ردّه عليه جماعة من المتأخرين ـ أهـ. علق عليه الإمام أحمد رضا خان فى جد الممتار فقال:

"أقول ـ إن شاء الله تعالى ـ بالتفصيل، والأمر فيه أن هنا بابين:

١ - باب قواعد رؤية الهلال.

٢ - باب سير النيرين وطلوعهما وغروبهما ومنازل القمر.

الأول لا عبرة به، لاختلافهم أنفسهم فيه كثيرا، وعدم حصولهم على قول قاطع، كما لا يخفى على من يعرف الفن، ولذا لم يعرج عليه فى المجسطى مع إيراده ظهور المتحيرة والثوابت، واختفائها، علما منه بأنه شئ لا يدخل تحت الضبط، وهذا هو الذى ردّه أئمتنا رضى الله تعالى

عنهم.

والثانى يقينى لا شك، تشهد به أكثر من آية فى القرآن العظيم، كقوله تعالى: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِى لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ ﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ فإن قالت الحُساب العلماء العدول بعدم إمكان الرؤية بناء على الأول، وشهدت البينة العادلة بالرؤية، قبلت ـ وإن بنوه على الثانى كما فى المسألة الثانية فإنه من المقطوع به الذى لا يتخلف أن الهلال يمكن أن يرى عادة ما لم يبعد عن الشمس عشر درجات، بل أكثر، فرؤيته نهارًا قبل طلوع الشمس، وليلا بعد غروبها يستلزم قطعا سير القمر فى نهار واحد أكثر من عشرين درجة، ومعلوم قطعا أنه لا يسير فى يوم وليلة إلا نحو اثنتى عشرة درجة، فيكون فى ذلك تبديل سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا، فحينئذ يقطع العالم أن الشهود شبه لهم، والقطعى لا مرد له ولعل هذا مراد الإمام السبكى –رحمه الله– فيكن التوفيق.

ونظير ذلك واقعة رمضاننا هذا عام ألف وثلاثمائة وثلاثين، صام الناس كلهم فى أقطار الهند جميعا يوم

الخميس، فلما كان الثامن والعشرون من الشهر يوم الأربعاء شهد فى "بدايون" عند صاحبنا المولى عبد المقتدر ثلاثة أو خمسة أنهم رأوا الهلال، وكان فى سحاب، فقبل وأمر الناس بالفطر، فلم يقبله إلا ناس من أنفاره، مع أنا نعلم قطعًا أن الشهود غلطوا لوجوه خمسة كلها مبنية على الباب الثانى دون الأول.

أولها: أن اجتماع النيرين كان فى هذا النهار، نهار الأربعاء ـ على تسع ساعات و١٨ دقيقة بالساعات الرائجة، فيستحيل عادة أن يرى بعد تسع ساعات وعدة دقائق، لأن غروب الشمس كان الساعة السادسة و٢٣ دقيقة.

ثانيها: أن غروب القمر المركزى الذى هو المعتبر فى غروب الهلال لأنه لا يكون إلا فى النصف الأسفل من القمر ـ وقع الساعة السادسة و٣٩ دقيقة، أى بعد ١٦ دقيقة من غروب الشمس، ومعهود قطعًا أنه بعد غروب الشمس إلى ٢٠ دقيقة تكون لأشعتها صولة لا يمكن أن يرى معها هلال التاسع والعشرين عادة، فإذا بلغ الهلال حد الرؤية كان قبل ذلك تحت الأرض بدقائق، فكيف يرى؟

ثالثها: أن الفصل بين تقويمة النيرين عند الغروب لم

يكن إلا نحو خمس درجات، والشمس فى الدرجة ١٩ من السنبلة، والقمر فى ٢٣ منها ومعلوم أن رؤية الهلال على هذا الانفصال خلاف السُّنة المستمرة المعلومة من خالقه ذى الجلال.

رابعها: أن الهلال طلع فى الليلة بعدها ضئيلا دقيقًا قريبا من الأفق لم يره الناس إلا بكلفة شديدة، ولولا قرب الزهرة منها لما كان يرجى أن يرى، ولم يمكث بعد غروب الشمس إلا إحدى وخمسين دقيقة، لأن غروب الشمس يوم الخميس كان على ساعة ست و٢٢ دقيقة وغروب القمر الساعة السابعة و١٣ دقيقة، ومعهود قطعًا أن مثله لا يكون لابن ليلتين.

خامسها: أن شهر شوال الحاضر يكون ـ إن شاء الله تعالى ـ ثلاثين يوما، فيوم الجمعة إن صفت السماء فسيرى الكل أنه لا هلال، فيلزم على حسابهم أن يكون شوال واحدا وثلاثين يوما، وهذا محال وبالجملة فلا شك فى بطلان شهادتهم، وإنما الأمر أنه كان سحاب، وكانت هناك الزهرة، فرأوها من وراء حجاب، فتخيلوها هلالا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم."

وللفتوى بقية يمكن الرجوع إليها فى نفس الرسالة.[1]

* * *

مجدد المائة الرابعة عشر[2]

(1) الإمام أحمد رضا خان وأثره فى الفقه الحنفى ص٢٣٠-٢٣٤، نقلا عن "جد الممتار" للإمام أحمد رضا خان الجزء الثانى ص١٩.

(2)هذا الفصل نقلا عن كتاب من أقطاب الأمة فى القرن العشرين ط٣، ص٧٠.

فى عـام ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م انعقـدت حفلـة عظيمـة بمدينـة "بتنـة" بالهند، وحضرها المئات من علماء الدين النابهين من أهل السنة والجماعة من أرجاء الهند وخلعوا عليه هذا اللقب "المجدد" وذلك فى حضور علماء أكبر منه سنًا.

قال د.حسين مجيب المصرى:"وقد لزمه هذا اللقب الذى عُرف به بين أهل زمانه إلى يومنا هذا، وقد اعتز بهذا اللقب إلى حد أن شكر الله على نعمائه فمدح نفسه، ولكن فى تواضع جم ولم يقل إلا حقا:

وعالم أهـل سنـة مصطفانا مجدد عصـره الفرد الفـريد

وأسفـار بها إسفـار صبـح متى يطلع فذا عيد سعيـد

ووصفه الشيخ موسى على الشامى من أفاضل علماء الأزهر الشريف بقوله: "إمام الأئمة، المجدد لهذه الأمة أمر دينها، المؤيد لنور قلوبها ويقينها، الشيخ أحمد رضا خان بلّغه الله فى الدارين القبول والرضوان."

ومدحه العلامة الشيخ محمد على بن حسين المالكى من مكة المكرمة بقصيدة منها قوله:

محيى علوم الدين أحمـد سيرة عـدل رضـا فى كل نازلـة عَدَتْ

مولى الفضائل أحمد المدعو رضا خان البريلوى من به الخلق اهتَدَتْ

قالا وأنعـم بالمحكم ذى التقـى فعلى تقدمـه البريـة أجمعَتْ

الطيّبُ بن الطيب بن الطيب بـ ـن ذوى الهدى، آيات رفعته رَقَتْ

* * *

ومع تبحره فى شتى العلوم مما شهد له به أعداؤه قبل أصدقائه فإنه ـ رضى الله عنه ـ لم ينسب لنفسه من ذلك شيئا قط، وإنما أقر دائما أن هذا من عطاء الوهاب على يد سيد الكائنات صلى الله عليه وسلم الذى قال: "إنما أنا قاسم والله يُعطى". وقد عبر عن هذا المعنى الراسخ فى فؤاده والمستقر فى ضميره مرارا، ومن ذلك قوله:

وكل خير من عطاء المصطفى ... صلى الله عليه مع من يصطفى

الله يعطــى والحبيب قاســم ... صــلى عليه القــادة الأكـــارم

ما نال خيــرا من ســواه نائل ... كـــلا ولا يرجــى لغيـــر نائـــل

منه الرجا منه العطا منه المدد ... فى الدين والدنيـا والأخــرى للأبد

وقوله فى قصيدة أخرى:

رسول الله فضلك يس يحصى ... وليس لجودك الســامى انتهـــاء

فــإن أكرمتنــا دُنيا وأخـــرى ... فليــس البحـــر ينقصــه الدلاءُ

ختـــام

تلك كانت نبذة سريعة عن حياة هذا الإمام التى امتلأت بالعطاء، وتزينت بالجهاد فى سبيل الله فى أعظم مواطن الجهاد التى لا يقوى على الثبات فيها إلا فحول الرجال.

لو أنه جاهد فى سبيل الله فى مجال الفتوى ـ فقط ـ كما أداها ـ لكان ذلك

حسبه وما أسعده به عند ربه.

ولو أنه جاهد فى سبيله فى مجال الردّ على أهل البدع والزندقة ـ فقط ـ لكان ذلك حسبه وما أسعده به عند ربه.

ولو أنه جاهد فى سبيله ـ سبحانه ـ فى مجال الدفاع عن سيد المرسلين وحبيب رب العالمين ضد أعدائه والمتطاولين على مقامه المنيف صلى الله عليه وسلم لكان ذلك حسبه وما أسعده به عند ربه.

ولو أنه جاهد ـ فقط ـ فى مجال إحياء محبة النبى صلى الله عليه وسلم فى الأمة من جديد، ومدحه بقصائد يُتغنى بها لكان ذلك حسبه وما أسعده به عند ربه.

ولكن الله جلّت قدرته جمع فيه كل هذه الخصال ـ وغيرها ـ فكان أمة فى رجل، ورجلا تحمّل عن أمة، وأدى ما عليه كاملاً غير منقوص.

اللهم اجزه عنا وعن الإسلام خير الجزاء، وصل اللهم على إمام المجاهدين وقدوة المخلصين وأعبد العابدين وأزهد الزاهدين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

* * *

لعلك ـ بعد هذا ـ يا صديقى الدكتور ـ تقول: ربما من جاءوا بعد الشيخ الإمام هم الذين انحرفوا بمنهجه! ولكن هذا لم يحدث قط، لأن الانحراف عن منهج الشيخ المؤسس له علامات لا تخفى على عين.

والمثال الذى يحضرنى الآن ويصلح أن يكون دليلاً على ما ذكرت هو الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة التى انحرفت عن الطريق الذى رسمه الشيخ المؤسس الإمام محمود خطاب السبكى حيث تنصل أتباعه من صوفيته، ولما كان الشيخ قد تعرض لها بالذكر فى كتبه تم تجاهل معظم مؤلفاته، بل تم تجاهل الشيخ ـ نفسه ـ فلا تجد له أثرًا فى خطب وعاظ الجمعية التى قامت منذ حياة الشيخ على أمر الدعوة فى أنحاء مصر، إلا قليلين منهم لا يزالون على العهد.

أما الإمام أحمد رضا خان البريلوى فهو حاضر لا يغيب عن خلفائه وأتباعه ومحبيه، ويشهد على ذلك مئات الرسائل والمؤلفات فى مختلف اللغات التى كتبوها عنه، ويشهد على ذلك أيضا التزايد الملحوظ فى نشر مؤلفات الإمام وترجمتها وتحقيقها والتعليق عليها، ويشهد على ذلك ـ أيضا ـ قصائده فى مدح خير البرية صلى الله عليه وسلم التى يترنم بها المنشدون ليس فى القارة الهندية فحسب، ولكن فى معظم أنحاء الدنيا أينما وُجد له أتباع ومحبون، ويشهد على ذلك أيضا عشرات المدارس والجامعات المعروفة بمدارس أهل السنة ـ التى تدرس علوم الشيخ وتسير على منهجه وطريقته والتى يتزايد عددها يوما بعد يوم. (انظر الملحق رقم٥).

منذ أيام ـ وأنا أكتب هذه السطور ـ استنارت مصر بزيارة الشيخ الكبير محمد أختر رضا القادرى الأزهرى (المعروف بتاج الشريعة) المفتى الأعظم بالهند، حفيد الإمام أحمد رضا خان البريلوى والقائم على جماعته، ورأيت حديثه عن جده الإمام أكثر من حديثه عن نفسه،

واعتزازه بجده الإمام أعظم من اعتزازه بنفسه، ورأيت تمسكه بها أرساه جده من القواعد ومن الثبات على الحق مما يثير الإعجاب حقا.

كان الإمام أحمد رضا يحرّم التصوير، وكانت وفاته فى سنة ١٩٢١م، واليوم ـ بعد ما يقرب من تسعين عامًا على وفاته حدثت فى الدنيا تغييرات هائلة وأصبح التصوير كالماء والهواء لشعوب الأرض لا يكاد أحد يتصور الحياة إذا غاب التصوير عنها. ومع ذلك وجدت للشيخ الجليل محمد أختر ضمن مؤلفاته كتابًا فى تحريم التصوير. وعلمت من أتباعه ومحبيه أنه لا يسمح بالتصوير فى مجلسه، حتى أنه لا توجد له صورة متداولة بينهم.

ورحت أتأمل فى هذا الأمر وأقول لنفسى: لو أن علماء الأمة اتخذوا نفس الموقف من التصوير لربما أصبح العالم على غير الشكل القبيح الذى نراه عليه، تأمل فى أبواب الفساد التى فتحت على الدنيا كلها من باب التصوير وحده حتى تقدر لهؤلاء الرجال جهودهم فى خدمة الدين وثباتهم على الحق.

أَتَذكر أنه فى ستينات القرن العشرين دخل التلفزيون مصر لأول مرة، وأصبحت مشاهد الخمر والمجون والعرى فى كل بيت حتى إن رجلاً فاضلاً قال بمرارة: إنى لم أفكر فى حياتى قط أن آخذ أهل بيتى وأولادى إلى ملهى ليلى والآن ـ بعد التلفزيون ـ دخل الملهى الليلى بيتى ـ عنوة ـ فى كل وقت.

نعم.. هذه فتاوى المخلصين، رجال الله الصادقين، الذين يدورون مع

الحق حيث دار، لا يلزمون أنفسهم بغيره، ولا يراعون فى ذلك إلا الله، يعلموننا درسًا مهمًا، فحواه: أن الباطل لابد أن يظل مرفوضًا من أهل الحق مهما علا شأنه واستشرى وانتشر..

*　*　*

نظرت إلى وجه الشيخ الكبير محمد أختر والبهاء يكسوه، والسكينة والوقار يجللانه، واستمعت إلى كلماته ـ بلغة عربية صحيحة ـ تخرج من فمه فى قوة وثقة تصدح بالحق المبين

فوجدتنى أقول:

سبحان الله... ذرية بعضها من بعض.

*　*　*

اللهم صل وسلم وبارك على حبيبك سيدنا محمد جدّ كل تقى، وحبيب كل ولىّ، وخصيم كل مارق شقى. رئيس الطائفة المؤيدة المنصورة وإن قل عددها أو خفت فى ضجيج الناس صوتها. اللهم صل عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

*　*　*